مستويات السرد الوصفـــــي القرآني

دراسة أسلوبية

● د. طلال خليفة سلمان
رئيس قسم اللغة العربية كلية التربية للبنات- جامعة بغداد

الخلاصة:

تهدف هذه الدراسة الى تحقيق ثلاثة اهداف شغل كل واحد منها اهتمام الباجث

١-دراسة السرد الوضعي في القران الكريم : فكما معلوم ان السرد ينقسم اللى نوعيين : سرد قصصي , وسرد وضعي . وقد ورد كلا النوعيين من السرد في القران الكريم . وفي الوقت الذي درس فيه السرد القصصي دراسات عديدة , ولاسيما في مجال الدراسات الاكاديمية , فان السرد الوضعي القراني لم يحض – حسب علمنا – بدراسة متخصصة . فكان هذا الامر حافزا على اختيار هذا الموضوع .

٢- دراسة اساليب القران الكريم , والتدبير في اياته البينات , وانعام النظر في قيمها الصوتية , ومستوياتها التركيبية والدلالية , لا نبتغي من ذلك الا خدمة كتاب الله العزيز , والانتفاع العلمي جراء مدارسة الاسلوب القراني المعجز , والتدبر في اياته الكريمات .

٣- لايخض على القارى المطلع مقدار التطور الحاصل في ميدان دراسة السرديات كالرواية مثلا , فقد اجتهد عدد كبير من الدارسين العرب والعراقيين في هذا المحال من الدراسة , وفد اعتمد الكثير منهم على المناهج النقدية الحديثة , وعلى اراء النقاد الاجانب في دراسة السرديات , وطوروها , واجتهدوا في تطبيقها على السرديات العربية .

وفي الوقت الذي نثمن فيه جهود هؤلاء النفاد فيدراسة السرد العربي . فاننا نرى ان دراسة النص القراني الذي كان من اهم النصوص السردية في اللغة العربية , واقدسها , واقدمها , وعلى مستوى عال من الفصاحة والبلاغة والاعجاز يمكن ان يكون مجالا في لدراستنا ويمكن ان نتواصل عن طريق دراسته الى خصائص السرد القراني .

ومنه السرد الوضعي .

انطوت الدراسة على مهاد نظري وأربعة فصول ، وألحقناها بخاتمة عرضنا فيها لاهم النتائج التي توصلنا إليها .

كان هدف المهاد النظري بيان مفهوم السرد , ومفهوم الوصف قديما وحديثا , وبيان حدود التداخل بينهما , ومن ثم دمج السرد والوصف في مصطلح (السرد الوضعي) وبعد ان عرضنا لأراء من سبقنا من النقاد في هذا المضمار , وبناء على التأسيس الذي قدمناه فاننا قمنا باجتراح مصطلح (السرد الوضعي القراني) , وعملنا على تأصيله , وبيان مميزاته التي تظمر بواسطتها في النص القراني .

درسنا في هذا الفصل الأول الذي عنوناه بـ(مستويات توجيه السرد الوصفي القراني) موجهات السرد الوضعي القراني وهي : القصدية , والافهامية والفهم , ودرسنا مستويات السرد الوضعي القراني الستة التي تمظهرت لنا بعد استقراء لنصوص القران الكريم قراءة دقيقة ومتأنية . وهذه المستويات هي :

١-الترغيب والتذهيب .

٢- وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون .

٣- وصف أحوال يوم القيامة ومشاهدتها.

٤- وصف أحوال الناس .

٥- التشريع .

٦- وصف القران الكريم .

اهتم الفصل الثاني بدراسة المستوى الصوتي , فقد قدمنا له بتوطئة عن الإيقاع والصوت , وأهمية صفات الحروف في تجسيد الأفعال والإحداث , وانقسم الفصل على أربعة مباحث هي : التكرار , والفاصلة , والتجانس , والتوازي , وبينا اثر هذه المنبهات الأسلوبية في إبراز المستوى الصوتي , وفي جذب انتباه المتلقي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهاد نظري

مفهوم السرد.

مفهوم الوصف.

التداخل بين السرد والوصف.

السرد الوصفي.

الدراسة الأسلوبية والسرد الوصفي القرآني.

مفهوم السرد:

بدءاً، لا بدّ من محاولة استكناه السرد بمفهوميه اللغوي والاصطلاحي. فبالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أنّ كلمة السرد تتمظهر بمعانٍ متعددة، سننتقي منها ما يوائم موضوعنا.

يذكر ابن منظور في لسانه أنّ السرد في اللغة: تقدمةُ شيء إلى شيءٍ تأتي به مُتسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً. سَرَدَ الحديث ونحوه يسرده سرداً إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سرداً إذا كان جيّد السياق له. وفي صفة كلامه: لم يكن يسرد الحديث سرداً أي يتابعه ويستعجل فيه. وسردَ القرآن: تابع قراءته في حَدْرٍ منه. والسرد: المتتابع. وسردَ فلان الصوم إذا والاهُ وتابعه[1].

ولا تكاد بقية المعاجم تخرج عن المعنى المذكور آنفاً. ففي معجم العين نجد الخليل يقول: سردَ القراءة والحديث يسرده سرداً، أي يتابع بعضه بعضاً[2]. ونجد ابن فارس يقول في مقاييس اللغة:

(١) لسان العرب، مادة سَرَد)، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ٧/ ١٦٥.

(٢) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دائرة الشؤون الثقافية والنشر،

سرد: يدلّ على توالي أشياء كثيرة يتصل بعضها ببعض[١]. ويقول الزمخشري في أساس البلاغة: سرد الحديث والقراءة: جاء بهما على وِلاء. وماشٍ مِسْرَد: يتابع خطاه في مشيه[٢].ويقول الفيروز آبادي: إنّ السرد جودة سياق الحديث، ومتابعة الصوم[٣].

إذا تركنا المعاجم القديمة، وتيّمنا أبصارنا نحو معاجم المصطلحات الحديثة، وكتب النقد الحديث؛ لنستكنه المعنى الاصطلاحي للسرد، فإنّنا نجد تعريفاتٍ عديدة لهذا المصطلح، حيث يرد تعريفه في معجم المصطلحاتٍ العربية في اللغة والأدب كما يأتي: السرد: هو المصطلح العام الذي يشتمل على قصٍّ حدثٍ أو أحداث، أو خبر أو أخبار سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال[٤]. وعرّفه الدكتور عز الدين إسماعيل بقوله: نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية[٥]. أمّا الدكتور عبد الملك مرتاض فإنّه بعقليته النقدية المتفتحة يحاول أن يعرّف السرد بأكثر من تعريف. فيقول فيه: هو التتابع الماضي على وتيرة واحدة[٦]، ثم يقول مرة ثانية: هو الطريقة التي يختارها الروائي أو القاص أو حتّى المبدع الشعبي الحاكي ليقدم بها الحدث إلى المتلقي. فكأنّ السرد إذن هو نسيج الكلام، ولكن في صورة حكي. وبهذا المفهوم يعود السرد إلى معناه القديم، حيث تميل المعاجم العربية إلى تقديمه بمعنى النسج أيضاً[٧].

ويعرّف الناقد فان ديك السرد بأنّه: وصف أفعال يُلتمس فيه لكل موصوفٍ فاعلاً وقصداً وحالةً وعالماً ممكناً وتبدّلاً وغاية، فضلاً عن الحالات الذهنية والشعورية والظروف المتصلة بها، فالتنافذ قائم بين عمليتي الإرسال والتلقي؛ لأنّ السلسلة اللفظية المشفرة التي يرسلها المؤلف، يقوم المتلقي بحلّها في ضوء السياق الثقافي[٨].

وحين نأتي إلى النص السردي فإننا نُواجَه بعدد من التعريفات، فيعرّفه مارتن كرَيْ Martin Gray بأنّه: قصة، حكاية، أو سرد لحقائق[٩]. ثم يقول: عند دراسة أي سرد، مثلاً رواية سيتضح مباشرة أنّها مؤلفة من أنواع مختلفة من الكتابة السردية، وبنسب مختلفة. ممكن أن تحتوي الرواية على حدثٍ مسرحي تمثيلي، وصف لأشخاص أو أماكن، محادثة، تقرير مكثّف عن أحداث الماضي، تفكير الكاتب أو أحد الشخصيات، تعليق عام، وكتابة مجازية[١٠].

ويرد تعريف آخر للنص السردي بأنّه: شعر أو نثر يروي يصف حدثاً أو تتابع أحداث، واقعية أو ملفّقة، ويستخدم المصطلح يصف بمعنى طريقة السرد. تتدرج النصوص السردية من أقصر وصف لأحداث كقول يوليوس قيصر: جئت، رأيت، قهرت، فتحت بلداً إلى أطول عمل تاريخي كما في كتاب تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية لأدوارد كبوف، إضافة إلى اليوميات، قصص الرحلات، الروايات، القصائد القصصية، الملحمة، والقصص القصيرة، وأشكال أخرى من الأدب الروائي[١١].

إنّ محاولة إنعام النظر في التعاريف اللغوية سالفة الذكر يجعلنا نعتقد أنّها تركز إجمالاً على الموالاة والتتابع والاتساق في العرض السردية من جهة، والمحافظة على مبدأ التقنية المرتبط بالتجويد والفنية من جهة ثانية، وهي من السمات السردية المهمة.

إنّ هذه التعاريف نظرت إلى السرد، وما يتصل به من مسائل فنية بحتة، ليس على أساس الابعاد اللغوية والمعجمية فحسب، وإنّما تجاوزته إلى المستوى التقني الذي يموضع السرد في مقام التبليغية التي تنشدها الحداثة، كما أنّ ما يظهر منها فنياً وجمالياً يحيلنا إلى تناول هيكل النص القرآني بوصفه بنية سردية إفضائية تسمح لنا باستكناه تمظهراتها السردية الإعجازية، ولاسيما في معطاها البنائي، أو في تجلياتها الداخلية التي لا يظهرها النص بمجرد ملامسته، وإنّما تتبدى بفعل ذهنية المتلقي، ومحاولة سبر أغوار النص والغوص فيه.[١٢]

كما أنّ نظرة فاحصة أخرى إلى مداليل التعاريف اللغوية تجعلنا نعتقد أنّ السرد لا يقتصر على القص والحكي، وإنّما يتوسع إلى سرد الحديث بكل تجلياته المختلفة من وصف وحوار وخطاب، بل هو سرد للقراءة أيضاً وذلك بأن تأتي متتابعة متسقة تأخذ بعضها برقاب بعض، وتتسق اتساقاً جيداً.

١٩٨٤، ٧/ ٢٢٦، باب السين والدال والراء.

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، ٣/ ١٥٧، باب السين والراء وما يثلثهما.

(٢) أساس البلاغة، الزمخشري، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، ٢٩٢.

(٣) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ١/ ٣٠١، فصل السين باب الدال.

(٤) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ١٩٨.

(٥) الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط٦، ١٨٧.

(٦) ألف ليلة وليلة، دراسة سيميائية لحكاية حمّال بغداد، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٣، ٨٣.

(٧) نفسه، ٨٤.

(٨) النص بنياته ووظائفه، مدخل أولي إلى علم النص، فان ديك، ترجمة محمد العمري، نقلاً عن: موسوعة السرد العربي، الدكتور عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ١٣.

(٩) Adictionary of Literary Terms ٢) By ؛ Martin Gray ، Essex ؛ Longman Group Limited ، ١٩٨٤ ، p. ١٣٣

(١٠) Ibid ، p. ١٣٣.

(١١) Gale. Cengag Learning ٤) http ؛// gle. Cengage. com/ Free – resources/ glossary no. htm.

(١٢) ينظر: مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، شارف مزاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١، ١٨.

أنّ الوصف:
إنشاء يُراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع.

من جانب آخر وفي محاولة استجلاء التعاريف الاصطلاحية للسرد فإننا سنجدها تتمحور حول قص الأحداث والأخبار، وحكايتها ونقلها من صورتها الحقيقية إلى صورة لغوية، سواء أكان هذا القص حقيقة أم خيالاً، وهو الطريقة التي يختارها المبدع أو المرسل ليعرض من خلالها الحدث إلى المتلقي أو المرسَل إليه.

أمّا التعريف الأول للسرد عند عبد الملك مرتاض فإننا لا نجده يختص بالسرد الروائي، وقص الأحداث، وإنّما ينحو به نحواً عاماً، فهو ـ حسب تعبيره ـ التتابع الماضي على وتيرة واحدة، فقد يكون هذا التتابع في سرد الأحداث وعرضها، وقد يكون لسرد الصفات التي يحاول السارد أن يضفيها على موصوفه؛ ليبين صفاته التي يمتاز بها، أو غير ذلك من السرود الأخرى. على حين ركّز فان ديك في تعريفه للسرد على كلمة الوصف، حيث ابتدأ التعريف بها. فالسرد ـ حسب ما يرى ـ هو وصف أفعال يُلتمس فيه لكل موصوف فاعلاً وقصداً وحالة. فالسارد يصف أفعال الشخصيات وأحوالها، وما تقوم به من أفعال سردية تشكل مجمل أحداث العمل السردي، وهذه الأحداث يقوم بها أشخاص معينون في زمان معين ومكان معين.

أما مارتن كرَيْ فقد توسع في تعريفه للنص السردي، ولم يقصره على القصة والحكاية فقط، بل امتد ليشمل سرد الحقائق مهما كان نوعها، سواء أكانت حقائق تاريخية أم أحداثاً أو صفاتٍ لأشخاص أو أماكن، أو أي نوع من الحقائق.

لم يبتعد التعريف الأخير عن تعريف فان ديك، إذ ورد فيه أنّ النص السردي يروي ويصف حدثاً أو تتابع أحداث، فهو ـ إذن ـ يركز على وصف الأحداث بكل أنواعها.

مفهوم الوصف

يقول ابن منظور في المعنى اللغوي للوصف: ووصف الشيء له وعليه وصفاً وصفةً: حلاّه...وقيل: الوصف المصدر والصفة الحلية. الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته. وتواصفوا الشيء من الوصف. وقوله عزَّ وجلّ: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ الانبياء/١١٢، أراد ما تصفونه من الكذب، واستوصفه الشيء، سأله أن يصفه له. واتصف الشيء أمكن وصفه[١].

وجاء في أساس البلاغة: وصفته وصفاً وصفةً، وله أوصاف وصفات حسنة. وتواصفوا بالكرم، وهو شيء موصوف ومتواصف ومتصف[٢].

وقال صاحب القاموس المحيط: ووصفه يصفه وصفاً وصفةً نعته فاتّصف، والمهر توجه لشيء من حسن السيرة. والوصّاف العارف بالوصف. وتواصفوا الشيء وصفه بعضهم لبعض، واستوصفه لدائه: سأله أن يصف له ما يتعالج به[٣].

أمّا الوصف مصطلحاً فكان أول من تناول الحديث فيه قدامة بن جعفر حيث عرّفه بقوله: الوصف إنّما هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات، ولمّا كان أكثر وصف الشعراء إنّما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم وصفاً من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه، وأولاها؛ حتّى يحكيه بشعره، ويمثله للحس بنعته[٤].

ويعرّف أبو الحسين الكاتب الوصف بقوله: وأمّا الوصف فهو ذكر بعض الأشياء التي تخص الشيء، وليست ثابتة على حدّ، كما يقال في الدار: الواسعة، أو الضيّقة، أو المبنية بالجص والآجر، وكما يقال في الرجل: الطويل الأسمر الأقنى، وكلّ هذه أوصاف لا تأتي على الحد بل يشرك الموصوف بها غيره فيها، ومثل ذلك التحلية التي تستعملها الكتاب والحكام فيمن يعرفوه باسمه وعينه ونسبه، فيكون من الاحتياط إذا لم يجدوا سبيلاً إلى غير ذلك[٥].

إذا قلبنا صفحات المعاجم وكتب النقد الحديثة بحثاً عن مصطلح الوصف فإننا سنجد الكثير من تعريفاته. فقد ورد في معجم المصطلحات العربية أنّ الوصف: إنشاء يُراد به إعطاء صورة

---

(١) لسان العرب، مادة وصف، ١٥/ ٢١٣.

(٢) أساس البلاغة، ٦٨٧.

(٣) القاموس المحيط، ٣/ ٢٠٤، فصل الواو باب الفاء.

(٤) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١١٨ـ ١١٩.

(٥) البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين الكاتب، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ٧٠.

ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للقارئ أو المستمع. وفي العمل الأدبي يخلق الوصف البيئة التي تجري فيها أحداث القصص[١]. ويعرّفه إبراهيم فتحي بقوله: هو شكل من أشكال القول يُنبئُ عن كيف يبدو شيء ما، وكيف يكون مذاقه ورائحته وصورته وملمسه، ويشمل استعمال الكلمة والأشياء والناس والأماكن والمناظر والأمزجة النفسية والانطباعات[٢]. ويعرّفه اللطيف زيتوني بقوله: إنّه تمثيل الأشياء والحالات أو المواقف أو الأحداث في وجودها ووظيفتها مكانياً وزمانياً[٣].

وتعرّف الناقدة سيزا قاسم الوصف بقولها: فالوصف أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسّي، ويقدّمها للعين، فيمكن القول: أنّه لون من التصوير، ولكن التصوير بمفهومه الضيّق يخاطب العين، أي النظر، ويمثل الأشكال والألوان والظلال[٤].

ويعرّف وليام كيني William Kenny الوصف بأنّه: العرض المباشر لخصائص شخص ما، أو مكان ما، أو شيء ما. ويتوسع الوصف عند البعض ليشمل عرضاً لخصائص غير مادية، مثلاً عندما يخبرنا الكاتب مباشرة عن الطبيعة الأخلاقية للشخصية، وأنّ جزءاً مناسباً من الوصف يوحي بخصائص أخلاقية وروحية مجسّدة في التفاصيل المادية...ويكون الوصف غالباً مستغرقاً في وصف تصوير الفعل السلوك وأغلب ما قيل عن المقاطع الوصفية يمكن تطبيقه على الوصف المستغرق في السرد[٥].

وورد مصطلح الوصف في بعض المعاجم الفرنسية بأنّه استحضار شخص ما، أو شيء ما، كتابياً أو شفوياً[٦].

إنّ نظرة فاحصة في معنى الوصف اللغوي تجعلنا نعتقد أن معناه نعت الشيء، وتحليته من أجل توضيحه للمتلقي، وبيان مواصفاته التي يتمتع بها، وصورته التي يتجلى بها.

وفي محاولتنا اكتناه المعنى الاصطلاحي للوصف، نجد أنّ قدامة بن جعفر يركز على ذكر الشيء بأحواله وهيئاته المختلفة، ثم يذكر الوصف في الشعر، وعند الشعراء، ويفضّل الشاعر الذي يصف في شعره أكثر المعاني التي يتمتع بها الموصوف، وأظهرها وأولاها. وكان تعريف أبي الحسين الكاتب عاماً، فلم يخصصه للحديث عن الوصف في الشعر أو القصص مثلاً، وإنّما كان كلامه على معنى الوصف العام الذي يشمل وصف جميع الأشياء، كوصفه الدار أو الرجل، وأساليب الكتّاب والحكام.

أمّا في المعاجم وكتب النقد الحديثة فنجد أنّ مصطلح الوصف قد توسع فكان أكثر شمولية، ففي التعريف الأول الذي أسلفنا ذكره، نرى أنّ هذا التعريف يعطي الوصف القابلية على تصوير المشاهد والشخوص والأحاسيس تصويراً ذهنياً، كما يعطيه القابلية على خلق البيئة والفضاء الذي تجري فيه أحداث القصص، على حين يمنح تعريف إبراهيم فتحي الوصف وجوداً مستقلاً؛ لأنّه فعالية قولية تؤدي مجموعة من الوظائف كالتحديد والتعيين للشيء، وكميته ونوعه وسائر صفاته التي يتصف بها من مذاق ورائحة وصورة وملمس.

أضاف تعريف اللطيف زيتوني إلى مفهوم الوصف سمتين هما: السمة المكانية والسمة الزمانية في تجسيد الموصوف؛ ليغدو الوصف آلية لتشكيل النص الأدبي ويصير أكثر واقعية وملامسة للجوانب الداخلية والخارجية للموصوف. أمّا تعريف سيزا قاسم فقد اهتم بالمظهر الحسي في وصف الأشياء؛ لذلك نراها تركز على كونه لوناً من ألوان التصوير الذي تتمظهر من خلاله الأشكال والألوان والظلال، وكل ما يكوّن العالم الخارجي.

ويتوسع مفهوم الوصف عند وليام كيني، فهو لا يشمل العرض المباشر لخصائص الشخوص والأماكن والأشياء فحسب، وإنّما يشمل عرضاً لبعض الخصائص غير المادية كالطبائع الأخلاقية والروحية المتجسدة في الشخصيات. كما أنّ الوصف ـ حسب ما يرى ـ يكون أداة لتصوير السلوك الذي تتحلى به الشخصيات. ويكون في بعض الأحيان مستغرقاً في السرد ملتحماً معه مكوّناً صورة سردية.

إنّ الوصف في البلاغة التقليدية كان يوضع في مستوى واحد مع بقية الصور الأسلوبية عبر ديباجة الكلام. لقد كان الوصف في الماضي يمتد مع الكلام، ويسعى إلى تفصيله، فيظهر كأنّه توقف للاستجمام والراحة والتقاط الأنفاس في العمل السردي على وجه الخصوص، كذلك لم تكن وظيفة الوصف حسب هذا المفهوم إلا جمالية. وقد كان كبار نقاد المذهب الكلاسيكي وشعراؤه، ومنهم الأديب الفرنسي بوالو ينظّرون للوصف على أنّه أسلوب مستقل بذاته، ويدعون أشياعهم إلى سلوك سبيل الإيجاز الشديد لدى السرد، وسبيل التفصيل والجزالة لدى الوصف إذ يقول: كونوا سريعين عجلين في سردكم وكونوا أسخياء مسرفين في وصفكم[٧].

ثمّة طرائق متعددة للوصف، أهمها اثنتان هما: الطريقة التعيينية،

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ٤٣٣.
(٢) معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، دار شرقيات، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠، ٢٧٠.
(٣) معجم مصطلحات نقد الرواية، اللطيف زيتوني، مكتبة لبنان، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢، ١٧١.
(٤) بناء الرواية، سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٥، ١٠٧.
(٥) How To Analyes fiction , By ; William Kenney , New York ; simon and Schuster , Inc ., ١٩٦٦ , p ٧٥ .
(٦) في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، الكويت، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ٢٨٨.
(٧) ينظر: في نظرية الرواية ٢٨٨ ـ ٢٨٩، وبناء الرواية، ١١٠.

والطريقة العلائقية، فطريقة التعيين أو بيان الحال يُراد بها أن الوصف يقوم على تعيين الخصائص الأساسية للموصوف ـ الشكل، اللون، الحجم أو على تعداد أجزائه[١]. واستناداً إلى هذه الطريقة يكتسب الموصوف وجوده وهويته؛ ليكون شيئاً متميزاً له مجاله الخاص وموقعه في النص الأدبي.

الطريقة الثانية هي الطريقة العلائقية، وتعني بيان العلاقة بين الموصوف وصفاته، وتعيين موقف الموصوف داخل المكان والزمان أو مقارنته بموصوفات أخرى من خلال التشبيه والاستعارة وصيغ الموازنة والنفي؛ ليس هو كذا، ليس عنده كذا...[٢]. وبهذه الطريقة يتم الكشف عن العلاقات التي يرتبط بها الموصوف بالأشياء المحيطة به، وبالمكان الذي يتموضع فيه، ويمكن للوصف أن يتناول الموصوف مجملاً ثم جزءاً، ويمكن أن يتناوله من حيث سماته أو وظائفه، ويمكن أن يتناوله لصورة مفصلة أو مقتضبة، موضوعية أو ذاتية، تقليدية أو ابداعية، تجميلية أو تفسيرية، ويسعى الوصف إلى تحاشي الجمود بخلق حركته الخاصة[٣].

التداخل بين السرد والوصف

يطرح الدكتور عبد الملك مرتاض سؤالاً مفاده: هل يمكن للكاتب الروائي أن يسرد فلا يصف، أو يصف فلا يسرد؟ وإذن، فهل يمكن للسارد أن يسرد حدثاً روائياً ما في موقف ما فلا يصف. وفي كل الأطوار؟[٤]. ويجيب عنه بقوله: إنّ الوصف ملازم لكل الكتابات الأدبية الشعر، القصة، المقالة، المقامة، الرواية...الخ، وهو في تمثلنا أضربٌ تختلف وظائفه باختلاف الخصائص الفنية والتقنية لكل جنس أدبي[٥]. إنّ الوصف لا يقتصر على النصوص التي ذكرها مرتاض. فهو يوجد بشكل كثيف في القرآن الكريم، حيث أنّ السرد القرآني يحوي من المقاطع الوصفية الكثير الكثير.

(١) معجم مصطلحات نقد الرواية، ١٧٢.
(٢) نفسه ١٧١.
(٣) نفسه ١٧٢.
(٤) في نظرية الرواية، ٢٩٤.
(٥) نفسه، ٢٩٤.

إنّ النص السردي مهما كان نوعه يتمظهر من خلال التداخل بين السرد والوصف. وفي ذلك يقول جيرار جينت: كل حكي يتضمن ـ سواء بطريقة متداخلة أو بنسب شديد التغيّر ـ أصنافاً من التشخيص لأعمال وأحداث تكوّن ما يوصف بالتحديد سرداً Narration هذا من جهة، ويتضمن من جهة أخرى تشخيصاً لأشياء أو لأشخاص وهو ما ندعوه في يومنا هذا وصفاً Description[٦]. ومع أنّ الفرق بين السرد والوصف ذلك الذي يلحظه القارئ عموماً وهو أنّ السرد يروي أحداثاً، أفعالاً في تعاقب مظهر زمني في حين يتعلق الوصف بالأشياء، أو الكائنات في تزامنها. يقول جيرار جينت: إنّه يبسط القصة في الحيّز[٧].

إنّ كل عمل سرد يحوي صوراً من الحركات والأحداث المتصاعدة، وهذه الصور هي التي تشكل السرد. كما أنّ كل عمل سردي يشتمل على صور من الأماكن والأشياء والشخصيات، هي التي تمثل الوصف، وذلك على الرغم من أنّ هذه الصورة شديدة الامتزاج والتداخل، وتمتد على طول النص السردي[٨].

قد يكون الوصف أكثر ضرورة للنص السردي من السرد نفسه، إذ ما أسهل أن نصف دون أن نسرد، ولكن ما أعسر أن نحكي دون أن نصف، ويمكن تقبّل الوصف بمعزل عن السرد، ولكنه لا يمكن أن يوجد سرد من دون وصف، غير أنّ هذا الارتباط العضوي لا يحظُر عليه أن يكون ذا بال في المقام الأول من النص. إنّ كل الآثار السردية كالملحمة والحكاية والقصة والرواية لا يمكن لأيّ منها الاستغناء عن الوصف، بل إنّه يتبوّأ فيها المنزلة الكبيرة؛ لذلك فإننا نجد الوصف أكثر لزوماً للسرد من لزوم السرد للوصف[٩].

هذه طائفة من الأفكار التي أثارها جيرار جينت وتودروف ودكرو. فهم يرون، فضلاً عمّا تقدّم، أنّ الوصف يبطئ من سير

(٦) بنية النص الروائي من منظور النقد الأدبي، الدكتور حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣، ٧٨.
(٧) مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، دليلة مرسلي وأخريات، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٥، ١٦٦.
(٨) ينظر: في نظرية الرواية، ٢٨٩، ٢٩٠.
(٩) ينظر: نفسه، ٢٩١ ـ ٢٩٢.

السرد أو يوقفه في بعض الأحيان مما يسبب تعارضاً بينهما، كما نلاحظ أن تودوروف ودكرو يفصلان في مسألة العلاقة بين الوصف والسرد تفصيلاً منهجياً، ويجتهدان في حصر هذه العلاقة في المدى الزمني وحده، ويحاولان التدقيق في تقرير هذه المسألة، فيريان أن الإيقاع الحدثي وما فيه من كثافة أو خفة هو الذي يجب أن يكون له الحكم أولاً وآخراً[١].

إنّ الوصف يتطلع إلى الاحياء، والأشياء، فيصفها في تزامنها وتعاقبها معاً، وهو حين يصف، سيعلق مسار الزمن، ويوقفه أو يبطئ سيره، وسيفضي تعليقه هذا إلى تمطيط الحكاية وتمييعها عبر الحيز. إنّ هذين الصنفين من الخطاب ـ كما يرى تودوروف ـ يستطيعان أن يبدوا على أنّهما معبران عن موقفين نقيضين إزاء عالم الوجود؛ إذ نجد أحدهما أكثر حيوية السرد، وأحدهما أكثر تأملية الوصف[٢].

بعد عرض هذه الآراء يتساءَل عبد الملك مرتاض قائلاً: هل يجب عدّ هذين الضربين من الخطاب الروائي نقيضين لا ينهض أحدهما إلا لمناوأة الآخر والحدّ من سلطانه، والسطو على مجاله؛ كما ذهب إلى ذلك جيرار جينت؟ وإذن، أفلا ينبغي أن نعدّهما صنوين متضافرين، ونظيرين متظاهرين؟ ولِمَ، إذن، يجب عدّهما متناقضين متعارضين متضاربين ماداما ثمرة من ثمرات اللغة السردية، وفيضاً من عطائها؟ أم أنّ مجرّد الوصف حين يتدخل عرضاً لمحاولة الحد من غلواء سرعة الزمن السردي في مساره يجعلنا نعدّه خصماً لدوداً للسرد الذي هو دفق دافق، وفيض فائض؟ إنّنا لا نحسب أن استعمال التناقض، هنا، بين هاتين التقنيتين مما يجدي نفعاً، ومما يُتقبّل بهذا اليسر.

إنّ الموقف الواحد قد يتعرض لتضافر السرد والوصف معاً، دون أن يفضي ذلك، في رأينا، إلى انشطار هذا الموقف إلى موقفين متناقضين، كما زعم ذلك تودوروف. فغاية الوصف تتمثل في تسليط الضياء على موقف ما، أو حدث ما، بينما تتجسد غاية السرد في تسليط بعض هذا الضياء على موقف ما أو حدث ما، وربما أمكن الخروج برأي مناقض لما زعم تودوروف، ويُمثّل في تشبيه حالي السرد والوصف بحال مرتحِل في سيارة فارهة؛ فهو ينهب السبيل نهباً؛ وهو، مع ذلك، لا يفوته التمتع، ولو على نحو ما، بالمشاهدة الطبيعية التي يفترض أن تكون على سماطي الطريق؛ وإلاّ فلا يعقل أن لا يتشرب المسافر ـ السائق ـ جمال تلك المشاهد الفاتنة، إلا إذا وقّف سيارته، وأخّر رحلته نحو الغاية التي كان يود بلوغها[٣].

(١) ينظر: نفسه، ٢٩٢.
(٢) ينظر: نفسه، ٢٩٢ ـ ٢٩٣.
(٣) في نظرية الرواية، ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

كما أنّ الدكتور مرتاض يختلف مع جيرار جينت وتودوروف وبوالو حول مسألة التعليق الذي أُلحق بالوصف ووُصِمَ به. حيث يقول: إذ نعد، نحن، الوصف غير مسؤول عمّا يحدث لتباطؤ جريان الحدث، وتراخي انسياب السرد لدى تعرّضه لهذا الوصف الذي نزعم أنّه، هو أيضاً، يسهم في بناء هذا السرد وبلورة حدثه. أرأيت إنّنا حين نقول مثلاً: الجو ممطر، والريح عاصفة، والناس آوون إلى بيوتهم للاصطلاء بالمدافئ. ألسنا هنا، أننا سردنا بالوصف؟ أولم نعرض لطائفة من الأحوال والمظاهر التي تحل محل السرد غير الموصوف؟[٤].

أشارت الناقدة سيزا قاسم إلى حدود التداخل بين السرد والوصف في كتابها بناء الرواية قبل الناقد عبد الملك مرتاض بحوالي ثلاث عشرة سنة، إذ قالت: هناك ولاشك نوع من التوتر بين الوصف الذي يتميز بالسكون، والسرد الذي يجسد الحركة. فإنّ النص الروائي يتذبذب بين هذين القطبين. وهناك نوع من التداخل بين الوصف والسرد فيما يمكن أن نسميه بالصورة السردية، وهي الصورة التي تعرض الأشياء متحركة. أمّا الصورة الوصفية فهي التي تعرض الأشياء في سكونها[٥]. ويسمي جيرار جينت أسلوب التداخل بين الوصف والسرد بالوصف المسرد، فيما تسمّيه سيزا قاسم بالصورة السردية[٦]، مستفيدة من رأي الناقد عز الدين اسماعيل بهذا الصدد.

عند دراسة سيزا قاسم التداخل بين الوصف والسرد في ثلاثية نجيب محفوظ نراها تسمي الصورة السردية بالوصف السردي، إذ تقول: فإذا كان هناك توتر بين السرد والوصف، فإنّ السرد يتغلب عند محفوظ، وسرعان ما ينتقل من الوصف الساكن إلى الوصف السردي[٧].

يظهر لنا مما تقدم أنّ السرد يمكن أن يتداخل مع الوصف في الرواية مكوناً وصفاً مسرداً ـ حسب تعبير جينت ـ وصورة سردية أو وصفاً سردياً، كما ترى سيزا قاسم، ولا غرابة في ذلك، فإنّ الرواية نص سردي يمكن أن يتداخل فيها السرد والوصف والحوار، ومن اجتماع هذه التقنيات السردية يتكون لنا نص الرواية.

السرد الوصفي

بناءً على التأسيس الذي قدّمناه، وعلى الشرح المفصّل الذي أسلفنا الحديث فيه حول المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم

(٤) في نظرية الرواية، ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٥) بناء الرواية، ١١٣.
(٦) نفسه، ١٥٦.
(٧) نفسه، ١٥٧، وتنظر الصفحات ١٥٨، ١٦٠ فانها تدرس الوصف السردي في الثلاثية.

السرد، والمعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الوصف، وبناءً على آراء عبد الملك مرتاض حول التداخل بين السرد والوصف، ورأي سيزا قاسم حول الصورة السردية والوصف السردي، وانطلاقاً من رأي جينت حول الوصف المسرّد، فإننا لا نجد ما يمنع علمياً واصطلاحياً ونقدياً من استعمال مصطلح السرد الوصفي. ومن هنا لم يكن غريباً أن نرى عدداً من النقاد المحدثين قد استعملوا هذا المصطلح في دراساتهم النقدية حول السردية في الرواية[١]، إذ يقول سمير اليوسف مثلاً في دراسته لرواية حكاية الخبيئة لجمال الغيطاني: وفي غير مناسبة يجري السرد الإخباري سواء كان موضوعه الحوادث الخاصة أم العامة، نحو المصادقة على السرد الوصفي لما هو موجود ومتوافر[٢].

ولئن أمكن الجمع بين مصطلحي السرد والوصف تحت عنوان السرد الوصفي في دراسات البنى السردية للرواية والشعر، على الرغم من اعتراض قسم من النقاد عليه، فإننا لا نرى ما يقف حائلاً بيننا وبين اجتراح مصطلح السرد الوصفي القرآني، ولاسيما إذا ما علمنا أنّ السرد القرآني يختلف من حيث نسيجه، وعلائق كلماته، وترابط جمله، وأنساق عباراته عن السرد في الرواية والقصة والمقامة والحكاية الشعبية.

لقد قام النص القرآني المعجز على عدد من المكونات السردية، منها السرد القصصي القرآني، الذي درس في أكثر من كتاب، وفي عدد من رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، ومنها الحوار، والخطاب، والوصف. وقد تمظهر الوصف القرآني عبر روافد عديدة. فتارة نرى الوصف يأتي في أثناء القصص القرآني، ويأتي ثانية عبر

(١) لقد تصفحتُ الكثير من مواقع النقد الحديث في شبكة المعلومات العالمية الانترنيت)، ووجدت عدداً من النقاد قد استخدم مصطلح السرد الوصفي) في نقودهم للأعمال الأدبية.
(٢) جريدة الشرق الأوسط، العدد ٨٧٠٨، الاثنين ٢٣ رجب ١٤٢٣هـ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢ بحث: السرد الآتي من التراث الأدبي، سمير اليوسف. وينظر استعمال مصطلح السرد الوصفي) في المواقع الآتية:
١ـ موقع صحيفة الجزيرة السعودية، العدد ١٢٦٣١، الأحد ١٢ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ مقال: نادي المدينة المنورة الأدبي ينظم ملتقاه الشهري.
٢ـ ٥/ ١٢/ ٢٠٠٧ Adab Arabi. Maktoobb log
٣ـ ٥/ ١٢/ ٢٠٠٧ WWW. Arabic Magazen. com

الحوار. وقد يأتي عبر خطاب الله تعالى لأنبيائه وعباده، ويظهر كذلك عبر أسلوب الدعاء الموجه من الأنبياء، والعباد إلى الله جلّ شأنه.

هناك تقنية سردية أخرى يظهر من خلالها الوصف في القرآن الكريم، هي تقنية الوصف عن طريق سرد الكلام وتتابعه[٣] على وتيرة واحدة[٤]، وعن طريق وصف الأفعال[٥]، وسرد الحقائق[٦]. وهو ما نصطلح عليه بـالسرد الوصفي القرآني. فقد كثرت نصوص هذا النوع من الوصف؛ مما جعل هذه الكثرة الكاثرة تشكل ظاهرة أسلوبية مطردة في ثنايا النص القرآني المعجز.

فضلاً عمّا تقدم نلحظ أنّ نصوص السرد الوصفي القرآني انمازت عن غيرها من نصوص الوصف بميزات عدّة هي:

١ـ وصف حال المؤمنين والكفار وعامة الناس والأشياء، والحديث عنهم بضمير الغائب، نحو قوله تعالى: بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ × وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٧]، وقوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ[٨].

٢ـ وصف آيات الله وقدرته في الكون بضمير الغائب نحو قوله تعالى: وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً[٩]، وقوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[١٠].

٣ـ صرف الحدث عن محدثه عمداً، فلا يسند إليه، بل يأتي بالفعل مبنياً للمجهول[١١]، ويستعاض عن الفاعل بنائب الفاعل،

(٣) ينظر: التعاريف اللغوية للسرد.
(٤) ينظر: تعريف عبد الملك مرتاض للسرد.
(٥) ينظر: تعريف فان ديك للسرد.
(٦) ينظر: تعريف مارتن كري للنص السردي.
(٧) البقرة ٨١ ـ ٨٢.
(٨) البقرة ٨.
(٩) النساء ١٢٦.
(١٠) الزمر ٦٢.
(١١) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، سلسلة الدراسات الأدبية ٢٥، ط٢، ١٩٦٦، ٧٥.

نحو قوله تعالى: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا[١]، وفَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ[٢] ووَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ[٣] وإِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً[٤].

٤ـ اسناد الحديث ـ بطريق المطاوعة أو المجاز ـ إلى ما يقع عليه[٥]. نحو قوله تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ[٦] وإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ[٧] ويَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً[٨] وفَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ[٩].

كان الباعث الأول والمحفز الرئيس لاستعمالنا مصطلح مستويات هو تعدد مستويات السرد الوصفي القرآني. فالقرآن الكريم أغنى الآثار السردية العربية بأنواع السرد؛ لما يتوافر له من مقومات السرد المعجز بنوعيه القصصي والوصفي. فقد تعددت مستويات السرد الوصفي القرآني، فجاء هذا السرد عبر أكثر من مستوى ونمط. ويمكن حصرها بما يأتي:

١ـ الترغيب والترهيب.
٢ـ وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون.
٣ـ وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده.
٤ـ وصف أحوال الناس والإنسان.
٥ـ التشريع.
٦ـ وصف القرآن الكريم.

أمّا الباعث الثاني لايثارنا مصطلح مستويات بدل تقنيات أو أبنية، مثلاً، فيرجع إلى محاولة تخليص النص القرآني من الشعور بالآلية، والتجريد من النفحات الأدبية التي تعتمد على الشعور، والمدركات المعنوية، كالخيال والتأمل، وما يرافق ذلك من مظاهر التفكير المعروفة[١٠].

الدراسة الأسلوبية والسرد الوصفي

حينما استقر رأيي على دراسة السرد الوصفي القرآني، كان ثمة رأيان في بالي. الأول هو أن أدرس الموضوع دراسة بلاغية، والثاني هو أن أطبق مبادئ المنهج الأسلوبي في دراسة الموضوع، ولمّا كنت ميالاً إلى المناهج والتيارات النقدية الحديثة؛ لاسيما وأنّ دراستي للماجستير كانت تنهج خطوات المنهج البنيوي في دراسة الشخصية والسرد الروائي في روايات غائب طعمة فرمان. فقد استقر رأيي على المنهج الأسلوبي؛ لما يتمتع به هذا المنهج من قابلية الاستفادة من النقد الألسني، ومباحث اللغويات بعدّها الركيزة الأساسية لمباحث الأسلوبية الحديثة التي ولدت على يدي دي سوسير، ثم نمّاها تلميذه بالي. وتتابعت الدراسات مشككة أحياناً في إنجازات بالي، أو موثقة لها ممّا هيّأ لاكتمال جوانب البحث الأسلوبي على أيدي رواد مثل سبتزر وما روزو وألونسو، أو على يد المدارس اللغوية التي شاركت فيه من أمثال الشكليين الروس والمدرسة الفرنسية والألمانية. وقد أكد كل ذلك ظهور علم العلامات السيمولوجيا أو السيميائية بوصفه وسيلةً فعّالة لشرعية الاتجاهات الأسلوبية؛ بما قدمته من جوانب تحليلية ساعدت في ربط الأدب باللغة من جانب، وربط الأدب من جانب آخر[١١]

من ناحية أخرى فإنّ تعدد مستويات السرد الوصفي القرآني وأنماطه أفضى إلى تنوع تمظهرها في الأسلوب القرآني. فما نجده في أسلوب مستوى الترغيب والترهيب، مثلاً، يختلف عن أسلوب مستوى الوصف لمشاهد يوم القيامة، ويختلف هذا عن أسلوب وصف أحوال الناس...وهكذا، تتعدد الأساليب بتعدد المستويات. وتعدد المستويات هذا يرجع إلى اختلاف الموقف أولاً، ثم طبيعة الموضوع المسرود ثانياً، وإلى مقدرة مبدع النص القرآني في التفنن في أساليب القول ثالثاً.

إنّ الدراسة الأسلوبية لها القدرة على استكناه ميزات النص القرآني، ولها القابلية على سبر أغواره، والتعمق في الحفر فيه. والحق فإنّ الحفريات الأسلوبية والدلالية والبنيوية، لا تهدد النصوص الدينية بأي شكل من الأشكال[١٢]، بل على العكس من ذلك، فإنّها تساعد على إظهار مكنونات تلك النصوص، وإظهار سماتها الموجودة فيها، والتي تشكل ظواهر أسلوبية لها كالانزياح والتوازي والتكرار والحذف والتقديم والتأخير...الخ.

إنّ الدارسين اليوم يعدّون الانحرافات والانزياحات في النسيج الكتابي الأدبي للنص هي التي تعكس هذه المؤشرات الدالة، وحزمتها الأسلوبية؛ وهناك تتكشف مجالات كل من البلاغة والأسلوبية، وآثار كل منهما في الكتابة الأدبية للنص؛ وذلك أن الأسلوبية تصافح الملفوظات الأدبية في حسيتها المباشرة فتكشف عن خصوصيتها، وبالتالي فرادتها، بينما تظل البلاغة عند قواعديتها فتكشف عن حقيقة هذه الفرادة في كشفها عن الانحرافات التي في الكتابة[١٣].

(١) الزلزلة ١.
(٢) المؤمنون ١٠١.
(٣) ق ٢٠.
(٤) الواقعة ٤.
(٥) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، ٧٥.
(٦) القمر ١.
(٧) الانفطار ١ ـ ٢.
(٨) الطور ٩ ـ ١٠.
(٩) القيامة ٧ ـ ٩.
(١٠) ينظر: مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، ١١.
(١١) ينظر: البلاغة والأسلوبية، الدكتور محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، ١٩٨٤، ٤ ـ ٥.
(١٢) موسوعة السرد العربي، ٢٤.
(١٣) النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠، ٤٨.

إنّ الدراسة الأسلوبية تأتي لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول خطاب عن سياقه الاخباري إلى وظيفته التأثيرية والجمالية، فوجهة الأسلوبية هذه إنّما تكمن في تساؤل عملي ذي بعد تأسيسي يقوم مقام الفرضية الكلية: ما الذي يجعل الخطاب الأدبي الفني مزدوج الوظيفة والغاية يؤدي ما يؤديه الكلام عادة وهو إبلاغ الرسالة الدلالية، ويسلط مع ذلك على التقبّل تأثيراً ضاغطاً به ينفعل للرسالة المبلغة انفعالاً ما؟ أمّا المبدأ المحرك لهذه النظرية في ضبط حدود الأسلوبية فهو اعتبار أن الفصل بين لغة الأثر الأدبي ومضمونه من شأنه أن يحول دون النفاذ إلى صميم نوعيته، لذلك تفادت الأسلوبية في جل اتجاهاتها هذه الثنائية المصطنعة وأقامت نوعية الأثر الأدبي على محور الروابط بين الصياغة التعبيرية ـ وهو الجانب الفيزيائي من الحدث اللساني ـ والخلفية الدلالية التي تمثل الجانب التجريدي المحض[١].

لقد انتقل الدرس الأسلوبي من محور البدائل إلى محور التركيب، وانتقل منهجه من محور الجمع والتبويب إلى محور التحليل واستنباط القوانين. وهذا يعني أنّه انتقل من الشيء إلى ما به يتخلّق فيحدث فيكون.

ثم بعد هذا وذاك، فهو درس يثير الأسئلة ويطرحها، وليس درساً يقرر الحقائق ويثبتها فقط. وأن أمراً كهذا ليدل أنّه نتاج عقلانية تبحث عن نفسها، ليس في الأعراف والتقاليد والثوابت والمألوف، ولكن في خلخلة الأعراف والتقاليد والثوابت من جهة، وفي الوقوف على المنزاح والمتكرر والمحذوف والمتقدم والمتأخر والمتغيّر وغير المألوف من جهة أخرى.

إنّ الأسلوبية غدت مكوناً فاعلاً في تحليل بنية النص غير أنّ حظ النص العربي بشكل عام، والنص القرآني المعجز بشكل خاص من ذلك كله قليل. ومن ثمّ تبقى للأسلوبية العربية آفاقها التي ينبغي أن تستكشف، لا ينال منها تحولات المذاهب والتيارات النقدية في أوربا. ولا يضيرها قول من يقول بانزوائها أو موتها.

بناءً على ما تقدم رأينا أن نختار المنهج الأسلوبي في دراسة السرد الوصفي القرآني؛ لأننا نرى أن لهذا المنهج القابلية على كشف مداليل النص القرآني وسماته الإعجازية التي اتسم بها، كما أننا نرى أنّه بظهور المناهج الحداثية استكمل لكتاب الله العزيز أن يدرس بعمق وغورية، وبرؤى معرفية كشفية تستجلي مظاهره الجمالية المتعلقة بمعماريته المحكمة، وسرده المتنوع، وإيقاعه العبقر، وهندسته الصوتية التي انعدم مثيلها[٢].

الفصل الأول

مستويات توجيه السرد الوصفي القرآني

توطئة: موجهات السرد الوصفي القرآني.
١ـ القصديّة.
٢ـ الإفهاميّة والفهم.
مستويات السرد الوصفي القرآني.
أولاً: الترغيب والترهيب.
ثانياً: وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون.
ثالثاً: وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده.
رابعاً: وصف أحوال الناس والإنسان.
خامساً: التشريع.
سادساً: وصف القرآن.

توطئة: موجهات السرد الوصفي القرآني

١ـ القصديّة:

إنّ محاولة استجلاء مصطلح القصدية تحيلنا إلى التمعن في تعريفه، فهو يعني قصدية المنتج توفير التضام والتقارن × في النص، وأن يكون أداة لخطّة موجهة إلى هدف[٣].

يتمحور اهتمام القصديّة حول اتجاه منتج النص إلى أن تؤلف

(١) الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، ط٣، ٣٦.
(٢) ينظر: مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، ١٧٧.
(٣) نفسه ١٢.

مجموعة الوقائع نصاً متضاماً متقارناً ذا نفع عملي وفكري في تحقيق مقاصده، أي في نشر معرفة أو عدة معارف أو بلوغ هدف أو عدّة أهداف، يتعين من خلال خطة معدّة من منتج النص[١].

إنّ التضام في ظاهر النص، والتقارن في باطنه يعدّان أكثر معيارين وضوحاً في معايير النصيّة، وهما يظهران كيفية تآلف العناصر المكونة للنص، وإفادتهما معنى، غير أنهما يعجزان عن تزويدنا بحدود فصل مطلقة تميز بين النصوص وغير النصوص في الاتصال الواقعي. ففي وسع الناس استعمال نصوص تبدو، لأسباب مختلفة، غير مستكملة التضام والتقارن، وهم يقومون بذلك فعلاً. ولذا يتوجب إدخال اتجاهات مستعملي النص ضمن معايير النصيّة. ولا غنى لأية تشكيلة لغوية، يراد استغلالها في التفاعل الاتصالي، عن توافر القصد القصدية بأن تكون نصاً، وعن قبولها بهذا الاعتبار.[٢]

إنّ القصدية بالمعنى الأوسع لهذا المصطلح، تشير إلى جميع الطرق التي يتخذها منتجو النصوص في استغلال النصوص من أجل متابعة مقاصدهم المتعددة، وتحقيقها بشكل كامل. ويحاول علماء النفس توكيد قصد منتج النص في توجيه وعي المستقبل بالكسر. ويدافع الفلاسفة عن أن منتج النص الذي يعني شيئاً من ذلك النص، إنّما يقصد من منطوق النص إلى إحداث تأثيرات في جمهورٍ ما عن طريق التعرّف على مقصده. وكذلك يهتم الباحثون في ميدان الذكاء الاصطناعي بأهداف الناس وخططهم من أجل تحسين تحليل معاني الكلمات التي تكمن دقتها فيما تستند إليه من مقاصد، وليس فيما لها من تجليات مادية. وقد كان أبلغ ما تأثر به علماء اللغة هو المدخل الفلسفي الذي صرف جهده إلى كيفية قيام الترابط بالفعل بين المقاصد من جهة، وبين معاني المنطوقات، وشكل إخراجها من جهة ثانية.[٣]

يعد الأدب حاملاً لقصدية المبدع المرسِل، التي يريد إيصالها إلى القارئ المُرسَل إليه بوسائل التأثير المناسبة. فالشاعر يحاول إيصال رؤيته وقصده من خلال قصائده التي يبث فيها أحاسيسه ومشاعره التي يجيش بها صدره، والقاص يريد إيصال قصده من خلال روايته أو قصته التي قد يحاول أن يسرد فيها سيرته الشخصية، أو يعالج أدواء مجتمعه الاجتماعية والثقافية والسياسية...الخ، وكاتب المسرحية يقصد من خلال الصراع التي تقوم عليه وإدارة الحوار بين شخوصها معالجة قضية أخلاقية أو دينية أو اجتماعية، وهكذا تتعدد مقاصد المبدعين، وتتعدد نصوصهم تبعاً لتعدد هذه المقاصد.

إزاء الكلام المتقدم عن القصدية التي يتخذها منتجو النصوص، والقصدية في الأدب يبرز تساؤل مهم أمامنا مفاده: هل نجد في القرآن الكريم قصدية اتبعها خالقه ومنتجه الحق تعالى؟ وللإجابة عـن هذا التساؤل لا بد لنا من ثلاث مقدمات.

١ـ إنّ القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ص)، ولا بد لهذا الكتاب الكريم الذي عُدّ معجزة النبي الخاتم (ص) من هدف وقصد من نزوله، وهو هداية البشرية إلى طريق الإيمان والخير والصلاح. قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)[٤] وقال سبحانه: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[٥] وقال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)[٦].

وقال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً)[٧]

٢ـ من أهداف القرآن الكريم ومقاصده الأخرى تبشير المؤمنين وإنذار الكافرين. ففي الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب العظيم كتاب هداية وبشرى للناس الذين يطبّقون ما أمرهم به، فإنّه في الوقت عينه كتاب إنذار وترهيب لمن لم يؤمن به. قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً)[٨]. وقال جلّ شأنه: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً)[٩].

٣ـ من آلاء الكتاب العزيز وأهدافه ومقاصده أنّه كتاب رحمة للبشرية جمعاء، كما أن فيه شفاءً للمؤمنين الذين يؤمنون بآياته. قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً)[١٠]. وقال تعالى: (وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)[١١]

من هذه المقدمات الثلاث نجد أن للكتاب العزيز عدّة مقاصد وأهداف ويمكننا القول إنّ هذه المقاصد هي مقاصد عامة للقرآن الكريم. وقد أشار الغرناطي الكلبي إلى بعض المقاصد العامة للقرآن

(١) ينظر: نفسه ٣٠.
(٢) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص ١٥٢.
(٣) ينظر: نفسه ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) البقرة ٢.
(٥) البقرة ٩٧.
(٦) البقرة ١٨٥.
(٧) الإسراء ٩، وينظر: النحل ٦٤، ٨٩، ١٠٢، النمل ٢، لقمان ٣، فصلت ٤٤.
(٨) الكهف ١ ـ ٢.
(٩) مريم ٩٧. وينظر: الإسراء ٩، الأنعام ٩٢، الأعراف ٢، النحل ١٠٢، النمل ٢، ٨٩، الشورى ٧، الأحقاف ١٢، الفرقان ١.
(١٠) الإسراء ٨٢.
(١١) النحل ٨٩. وينظر: الأعراف ٢٠٣، يونس ٥٧، النمل ٧٧، القصص ٨٦، لقمان ٣.

الكريم بقوله: اعلم أن المقصود بالقرآن دعوة الخلق إلى عبادة الله، وإلى الدخول في دينه، ثم أن هذا المقصد يقتضي أمرين لا بدّ منهما، وإليهما ترجع معاني القرآن كلّه. أحدهما: بيان العبادة التي دُعي الخلقُ إليها، والأخرى: ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وترددهم إليها[١].

ثمة مقاصد خاصة تتمظهر في نصوص القرآن الكريم. فالقصص القرآني له مقاصده كأخذ الموعظة والعبرة، والاطلاع على أخبار الأنبياء والأمم السابقة، وتثبيت فؤاد النبي الأكرم ﷺ، إلى غير ذلك. قال تعالى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[٢]. وقد نبه الغرناطي الكلبي إلى قصدية القصص القرآني بقوله: فإن قيل: ما الحكمة من تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه. الأول أنّه ربّما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى. ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى. الثاني أنّه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريقة الإطناب، وفي مواضع على طريقة الإيجاز؛ لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين. الثالث أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد، فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد. فمن المقاصد بها إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذّبهم بأنواع من المهالك. ومنها إثبات النبوة لمحمد (ص) لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلّم من أحد، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: (مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا)[٣]. ومنها إثبات الوحدانية. ألا ترى أنّه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال: (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ)[٤]. ومنها الاعتبار في قدرة الله وشدة عقابه لمن كفر، ومنها تسلية النبي (ص) من تكذيب قومه له بالتأسي بمن تقدم من الأنبياء كقوله: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)[٥]. ومنها تسليته (ع)، ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله، ومنها تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم، إلى غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ[٦].

مثلما كان للقصص القرآني مقاصد، فإنّ للحوار والخطاب والوصف مقاصد معينة تجلّت في النص القرآني المعجز. وعلى وفق ذلك نجد القرآن الكريم يلح على الإبانة، أي إيضاح المقاصد التي يبغي من خلالها إقامة الحجة على الناس أجمعين؛ لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين.

ظهرت هذه القصدية بشكل واضح وجلي في نصوص السرد الوصفي القرآني عبر تمظهراته المتعددة. فعندما يذكر الباري جلّ شأنه ما ينتظر المؤمنين الصالحين من جنات ونعيم وفوز عظيم فإنّ قصدية السرد الوصفي القرآني هي ترغيب الناس في طاعة الله والإيمان والعبادة، وعمل الخير والصلاح. قال تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[٧]. وعندما يذكر ما أعدّ للكافرين والجاحدين من وعيد وعذاب فإنّ قصده من ذلك هو ترهيب هؤلاء الناس؛ ليرتدوا عمّا هم فيه من غيٍّ وضلال. قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٨].

ونجد القرآن الكريم يذكر خلق الله للكائنات بأنواعها المختلفة، وقدرته على التصرّف في هذا الكون الفسيح، وتسيير الكواكب والنجوم، وتسخير الرياح، وغيرها من الآيات الكونية، نجده يسرد كلّ هذه الأمور، والقصدية القرآنية من ذلك هي وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون. قال تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، القاسم ابن أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ١/ ٥.
(٢) هود ١٢٠.
(٣) هود ٤٩.
(٤) هود ١٠١.

(٥) الأنعام ٣٤.
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٦.
(٧) النساء ١٣.
(٨) البقرة ٣٩.

فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[١].

وحينما يصف القرآن الكريم ما سيؤول إليه الكون يوم القيامة، وما سيلقاه المؤمنون من نعيم وحبور، وما سيلقاه الكافرون من عذاب شديد فإنّ القصد من ذلك هو وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده. قال تعالى: (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)[٢]. وهكذا الأمر في وصف أحوال الناس والإنسان، وفي التشريع، وفي وصف القرآن الكريم. فإنّ نصوص السرد الوصفي القرآني قد ارتبطت بقصدية الخطاب القرآني الذي يرينا أن ثمة وحدة فكرية متلازمة في السرد الوصفي المتواصل للترغيب والترهيب، ووصف قدرة الله وآياته في الكون، ووصف مشاهد يوم القيامة ووصف أحوال الناس والإنسان، والتشريع، ووصف القرآن الكريم، من منظور إلهي وبكيفيات أسلوبية مختلفة؛ من أجل تحقيق المشروع القرآني في إقناع الناس وإفهامهم لتحقيق استجابتهم. إنّ هذه النصوص مكيّفة فكرياً وفنياً وقصدياً لمخاطبة العقلية الإنسانية، ومن ثمّ إفهامها وجذبها إلى طريق الحق.

٢ـ الإفهاميّة والفهم.

حدد رومان جاكوبسن ست وظائف للتواصل في اللغة ×، وغالباً ما تكون واحدة من هذه الوظائف أو أكثر هي الغالبة والمسيطرة على النص، وعادة ما تكون ذات علاقة بنوع النص. ومن هذه الوظائف، الوظيفة الإفهامية، التي تكون موجهة نحو المخاطب، كصيغ الأمر أو المناجاة، أو عن طريق توجيه الخطاب إلى شخص غير موجود، أو إلى شيء تجريدي لغرض بلاغي، وتسمى أيضاً بالوظيفة الندائية أو الأمرية أو الموجهة[٣].

إنطلاقاً ممّا تقدّم يمكن تعريف الإفهامية بأنّها محاولة منتج النص إفهام المتلقي ما يريد إفهامه من خلال نصّه، ومن ثمّ تحقيق استجابة هذا المتلقي من خلال عملية الإفهام. فهي أداة من أدوات المرسِل لتحقيق عملية التواصل بينه وبين المرسَل إليه.

إنّ فهم المتلقي لنصٍ ما، وتحقيق استجابته يتحقق من خلال عملية الإفهام والإقناع التي يقوم بها منتج النص، ويحرص من خلالها على تحقيق أكبر استجابة ممكنة لنصّه[٤]. فالمعنى هو حصيلة للتفاعل بين بنية العمل الأدبي، وعملية الإفهام وفعل الفهم. يقول آيزر: يتشكل العمل الأدبي من خلال القراءة، وجوهره ومعناه ليسا وليدي النص بقدر ما هما وليدا التفاعل الداخلي بين أجزائه وتصورات القارئ[٥]. وفحوى هذا الكلام أن العمل الأدبي يحتوي رموزاً ودلالات وإيحاءات وقدرة على تحقيق الإفهامية تستطيع أن تثير لدى القارئ ما يمكن أن يعدّ نشاطاً إبداعياً مؤثراً يستطيع بوساطته تلقي النص وفهمه.

أمّا الفهم التقبلية فهو تقبلية النص، وموضوعه اتجاه مستقبل النص إلى أن تؤلف مجموعة الوقائع اللغوية نصاً متضاماً متقارناً، ذا نفع للمستقبِل أو صلة ما به، أي اكتسابه معرفة جديدة، أو قيامه بالتعاون لتحقيق خطة ما[٦] من خلال فهمه النص. وثمة نظرات متعددة إلى الفهم، فهو القدرة على الإدراك والتفكير. وتفاوتت نظرة الفلاسفة الغربيين إليه، فقد رأى الفيلسوف الانكليزي جون لوك أنّه: العمل الذهبي الذي يشكّل المدركات الحسيّة في صورة جديدة. ورأى فيه جوتفريت فلهلم ليبنتز الألماني أنّه: الإدراك العقلي في مقابل الإدراك الحسّي. ورأى فيه عمانؤيل كانت الألماني أنّه: وظيفة الذهن التي تتلخص في ربط المحسوسات بعضها ببعض بواسطة المقولات[٧]. ولقد أفاد أصحاب نظرية التلقي من الفيلسوف هانز جورج غادامير في نظرته إلى التأويل، وعمل الفهم وإعادة الاعتبار إلى التاريخ في إعادة إنتاج المعنى وبنائه، وقد كان دلتاي وهو أحد مصادر فلسفة غادامير، يهتم بدراسة الفهم دراسة عملية. ويعني الفهم لديه النظر في عمل العقل البشري أو إعادة اكتشاف الأنا في الأنت[٨].

تنطلق مقاربة جمالية التلقي للمعنى منطلقاً يجعل عملية الفهم بنية من بنيات العمل الأدبي نفسه؛ ليصبح الفهم هو عملية بناء المعنى وإنتاجه، وليس الكشف عنه أو الانتهاء إليه، وبذلك يعدّ المحصول اللساني مؤثراً واحداً من مؤثرات الفهم لا بدّ من تغذيته بمرجعيات ذاتية قائمة على فعل الفهم من لدن المتلقي[٩]. ولقد بدا التحول المنهجي الذي طرأ على تحليل النص بالاستناد إلى جمالية

(١) يس ٣٧ ـ ٤٠.
(٢) عبس ٣٣ ـ ٤٢.
(٣) ينظر: The functions of Language. by ؛ Louis_ Hebert. hittp ؛//www Signosemio. com /٨/ ٢٠٠٨/ ٨/ Roman Jakobson. hittp ؛// en. wikipedia ، org/ ٩. wiki. ٢٠٠٨/ ٨/ ٩. _

(٤) ينظر: بحث رومان جاكوبسن العالم اللساني، عبد الفتاح المصري، مجلة الموقف الأدبي اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٢٠، نيسان ١٩٨١.
(٥) في النقد والنقد الألسني، الدكتور إبراهيم خليل، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان ٢٠٠٢، ١٠٩.
(٦) مدخل إلى علم لغة النص ٣١.
(٧) استرداد المعنى ـ دراسة في أدب الحداثة، عبد العزيز ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٦، ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٨) نظرية التلقي ـ أصول وتطبيقات، الدكتورة بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٩٩، ٢٧.
(٩) نظرية التلقي ٢٩.

التلقي ينم عن إدراج فعل الفهم في القراءة، وجعل نتاجه بنية من بنيات النص، وبدا الفهم القسيم المعرفي للذات وما ينتج عنه من تباين الاستجابات لتباين الذوات المعرفية[١].

إنّ تباين استجابات المتلقين لنص ما أمرٌ بديهي يمكن إرجاعه إلى تفاوت الناس في الفهم؛ لتفاوت قدراتهم على الإدراك والتفكير والاستكناه، وتكون استجاباتهم خاضعة لذلك التفاوت. فالقراء لا يتساوون في نظرتهم إلى النص، حيث تختلف نظرتهم هذه تبعاً لتباين مستوياتهم المعرفية ، ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أنواع:[٢]

١ـ القارئ العادي الذي لا يقدم أي إضافة للنص، وهذا هو القارئ السلبي.

٢ـ القارئ العارف أو المهتم، وهو الذي يستطيع بما أوتي من خبرة وثقافة إعادة إنتاج النص الأدبي في نفسه.

٣ـ القارئ الناقد الذي لا يستطيع إنتاج النص في نفسه فقط، بل على الورق أيضاً، أي أنّه قادر على صياغة النص من جديد في قراءة تؤثر بدورها في قارئ آخر من النوع الأول أو الثاني. وهذه القراءة يسميها أقطاب مدرسة كونستانس الألمانية القراءة المنتجة[٣].

لقد اعتمد مبدع النص القرآني على الإفهامية في توجهه نحو المتلقي؛ ليحصل على الاستجابة المتوخاة التي تتحقق من خلال عملية الإفهام، فالإفهامية في القرآن الكريم عبارة عن عملية تواصل بين المرسِل والمرسَل إليه تحمل رسالة سماوية هدفها وقصدها هداية المتلقي والسير به قدماً إلى ما يحقق له السعادة في الدارين، ومصدر هذه الرسالة وباثها هو الله سبحانه وتعالى، ومتلقيها هو الإنسان الذي يتأمل فحوى هذه الرسالة السماوية، وينظر إلى الكون من حوله فيستخلص وجوه الحكمة الإلهية.

إنّ هذا التوجه نحو المتلقي، القائم على الإفهامية سمة من سمات النص القرآني، ويتجلى في الكثير من النصوص الكريمة، ولاسيما عند مخاطبة الأنبياء (ع) والصالحين للأقوام الخارجة عن الإيمان، فأسلوب الحوار وطريقة التخاطب التي يستخدمها، وما تتضمن من أبعاد نفسية وجمالية تحمل المتلقي على الإنصات لقوة المحاججة العقلية ووضوح البيّنة، القائمة على الإفهامية، فيقف متأثراً مفكراً، بعد أن فَهِم الرسالة، مفكراً في نفسه وفي أبعاده القصيّة التي تظل لصيقة بالذاكرة، أمّا من لم يفهم الرسالة فإنّه لا يفكر بما يقال. قال تعالى: (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)[٤].

يكشف النظر في الآيات الكريمة نوعاً خاصاً من توجيه النص نحو المتلقي، ذلك المتعلق بالإقناع والتأثير الإفهامية، والحوار والدليل البياني، واستمالته بلطف وحنان؛ لكسب استجابته وفهمه للخطاب الموجّه إليه، فإنّ فهِم فقد آمن، وإلاّ فلا إيمان له. ويلاحظ في الآية خصوصية التركيب الجمالي في القرآن الكريم، من خلال الاهتمام والعناية بالمتلقي، ومحاولة إفهامه بشتى الأساليب.

لقد أشار الطبري في تفسيره إلى الإفهامية والفهم في القرآن الكريم قبل مئات السنين، فهو يعالج المسألة بكل وضوح، ويشير إلى أبعاد عملية التواصل من مرسِل ورسالة ومرسَل إليه، إذ يقول: كان معلوماً أنّه غير جائز أن يخاطب ـ جلّ ذكره ـ أحداً من خلقه إلاّ بما يفهمه المخاطب، ولا يرسل إلى أحدٍ منهم رسولاً برسالةٍ إلاّ بلسانٍ وبيان يفهمه المرسَل إليه؛ لأنّ المخاطب والمرسَل إليه إن لم يفهم ما خوطب به، وأُرسل به إليه، فحالُهُ قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء، إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً، كان به قبل ذلك جاهلاً. والله ـ جلّ ذكره ـ يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أُرسلت إليه؛ لأنّ ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال؛ لذلك قال جلّ ثناؤه في محكم تنزيله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) إبراهيم ٤ وقال لنبيّه محمد:

(١) نظرية التلقي، ٣٦.
(٢) ينظر: في النقد والنقد الألسني ١٠٩.
(٣) ينظر: نفسه ١٠٩.

(٤) غافر ٤١ ـ ٤٤.

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) النحل [١] ٦٤.

في كلام الطبري إشارة واضحة إلى الإفهامية العالية التي يقوم بها مبدع النص القرآني، وإلى مستوى الفهم عند المتلقي المرسَل إليه، فالإفهامية العالية الموجهة نحو المتلقي، هي التي تولد الفهم الذي يتوخاه منتج النص، وهي التي تولد عملية التواصل بين المرسِل والمرسَل إليه.

من عجائب النص القرآني وخصوصياته أنّه يقوم على التدرج في تحقيق الإفهام والإقناع؛ مراعاة لطاقة الانسان على استيعاب مضامينه الكثيرة، بقصد التوافق في الإبلاغ، ومراعاة لحالته النفسية من أجل الحصول على استجابته المرجوة، وهذا ما نجده في آيات تحريم الخمرة مثلاً. فقد تدرج تحريمها مراعاة لهذا الانسان. قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)[٢]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)[٣]، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[٤].

امتازت نصوص السرد الوصفي القرآني بإفهاميتها العالية، فهي موجهة بشكل قصدي إلى متلقٍ عام، ويتم الحديث فيها عن المؤمنين والكفار وعامة الناس والمخلوقات بضمير الغائب تارةً، وبصرف الحدث عن محدثه ثانية، وبإسناد الحدث بطريق المطاوعة والمجاز إلى ما يقع عليه. فنصوص الترغيب والترهيب تريد إفهام المتلقي أنّ من يعمل الصالحات ثوابه الجنة، ومن يعمل الخبائث جزاؤه جهنم. قال تعالى: (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)[٥]. ونصوص وصف قدرة الله وآياته في الكون هدفها إفهام السامع بأنّ هذا الكون بأجمعه خاضع لإرادة الله ومشيئته، وأنّه مخلوق ومسيّر بقدرته سبحانه. قال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ)[٦]. ونصوص التشريع قصدها إفهام الناس تكليفهم الشرعي؛ ليميزوا بين الحلال والحرام، فهي تحثهم على العمل بما حلله الله تعالى، وترك ما حرّمه. قال تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٧]. وهكذا نجد بقية نصوص السرد الوصفي كوصف أحوال يوم القيامة ومشاهده، ووصف حال الناس والإنسان، ووصف القرآن، فقد امتازت بإفهاميتها وبتدرجها في عملية الإقناع والتأثير والإفهام، والهدف من ذلك هو تحقيق أعلى درجات الفهم والاستجابة عند المتلقي. فالفهم العالي من لدن المتلقي يتحقق من خلال الإفهامية العالية التي يقصدها مبدع النص القرآني.

مستويات السرد الوصفي القرآني.

أولاً: الترغيب والترهيب.

الترغيب: هو ذكر ما ينتظر المؤمنين من خير في الحياة الدنيا، ونعيم في الدار الآخرة جزاءً بما كانوا يعملون. فالقصد منه حث المؤمنين وتشجيعهم على تأدية العبادات والمعاملات بشكل صحيح، وفعل الخير؛ لكي يتكامل المجتمع الاسلامي، وينحو نحو الصلاح، وبذلك يدخل المؤمنون جنان الخلد؛ جزاءً وثواباً لأعمالهم الصالحة التي يعملونها في دار الدنيا.

أمّا الترهيب: فهو ذكر ما ينتظر الكافرين من خزي وعقاب في الحياة الدنيا، وعذاب شديد مهين في الدار الآخرة؛ ليجزيهم ربهم أسوأ الذي كانوا يعملون. فالقصد منه هو حث الناس على الابتعاد عن فعل الشر والذنوب والمعاصي.

اعتنى العلماء والمفسرون لكتاب الله العزيز كثيراً بالترغيب والترهيب أو الوعد والوعيد؛ وذلك لكثرة نصوصه في القرآن الكريم، ولما تتضمنه هذه النصوص من جوانب تربوية كبيرة. فهذا الغرناطي الكلبي يذكر الوعد والوعيد بقوله: وأمّا الوعد فمنهُ وعدٌ بخير الدنيا من النصر والظهور وغير ذلك، ومنه وعدٌ بخير الآخرة وهو الأكثر كأوصاف الجنة ونعيمها. وأمّا الوعيد فمنه تخويف بالعقاب في الدنيا، ومنه تخويف بالعقاب في الآخرة وهو الأكثر، كأوصاف جهنّم وعذابها وأوصاف القيامة وأهوالها. وتأمل القرآن تجد الوعد مقروناً بالوعيد، قد ذُكر أحدهما اثر ذكر الآخر؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب، وليتبين أحدهما بالآخر كما قيل، فبضدها تتبين الأشياء[٨]

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن المسمّى بتفسير الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، قدّم له الشيخ خليل الميس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ١/ ١٨ ـ ١٩
(٢) البقرة ٢١٩.
(٣) النساء ٤٣.
(٤) المائدة ٩٠.
(٥) السجدة ١٩ ـ ٢٠.
(٦) الزمر ٥.
(٧) البقرة ٢٢٦ ـ ٢٢٨.
(٨) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٥.

إنّ المنهج التربوي للإسلام يحرص كل الحرص على مراعاة الإنسان مهما كان توجهه. وتتمثل هذه المراعاة في الاعتناء بالنفس البشرية ذات الإقبال والإدبار، والقرآن الكريم يتعامل مع هذه النفس بهذه الاعتبارات كلّها؛ لذلك نراه يرغّب تارة، ويرهّب أخرى، ويعد ويوعد ويخوّف؛ لكي يحصل على إقبال هذه النفس، ويجنّبها الإدبار وصولاً بهذا الإنسان إلى طريق الإيمان والخير، وإبعاداً له عن طريق الكفر والشر، وبالتالي يدلّه على طريق الجنة، ويجنبه طريق جهنّم كما أنّه في غالب آياته يقدم الترغيب والوعد على الترهيب والوعيد؛ ذلك لأنّ رحمة الباري سبقت غضبه، ووسعت كلّ شيء. قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[١].

يقرن الباري سبحانه بين الترغيب والترهيب في الكثير من آياته الكريمة فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة، وصفة الجنة والترغيب فيما لديه. وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها، والقيامة وأهوالها، وتارة يجمع لينجع في كلٍ بحسبه[٢]. وقصده تعالى من كل ذلك إفهام الناس بشكل تدريجي وإقناعهم بسلوك سبيل الحق والابتعاد عن طريق الباطل، حياشة لهم إلى جنّته، ودفعاً لهم عن ناره، ولتبقى النفوس بين الرجاء والخوف[٣]، الرجاء في دخول الجنة، والخوف من دخول جهنم.

كما أنّه تعالى يجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعته، وتثبيط عباده الكافرين عن معاصيه[٤].

ومن هذا تتبين قصدية نصوص الترغيب والترهيب التي اعتمدها الله تعالى. فنراه سبحانه يسرد أوصاف المؤمنين ويذكر أحوالهم والنعيم الذي يتنعمون فيه، ويسرد أوصاف الكافرين، ويذكر ما هم فيه من الذل والخزي في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة؛ ليمنح القارئين والسامعين درجة عالية من الفهم والمقارنة بين الحالين، وصولاً إلى التأثير فيهم.

من محاولة استقراء نصوص السرد الوصفي التي تنتهج سبيل الترغيب نرى أنّ الباري عزّ ذكره يسرد صفات المؤمنين كالتقوى، والإيمان، وعمل الصالحات، والإنفاق في سبيل الله، والتوبة، وغيرها من الصفات الحميدة؛ ليرغبهم فيها، ومن ثمّ ليدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً)[٥].

وقال تعالى: (لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)[٦].

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)[٧]

إنّ هذه الآيات الكريمة وأشباهها ترغّب المؤمنين بذكر ما أعدّ الله لهم من جنات ونعيم في الآخرة. وثمة آيات أخرى ترغبهم بما وعدهم ربهم من خير في الحياة الدنيا. فالإنسان المؤمن يحصد جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة. وفي ذلك يقول تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)[٨] فالباري يسرد صفات المؤمنين في البداية ثم يرغبهم بما وعدهم من درجاتٍ عالية ومغفرة ورزق كريم. والدرجات هي شرف وكرامة وعلو رتبة، ومغفرة وتجاوز لسيئاتهم[٩] ورزق كريم

(١) الأعراف ١٥٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ٢/ ٢٠٨.
(٣) نفسه ٢/ ٢٧٠.
(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، بيروت، ١/ ٥٤.
(٥) النساء ١٢٢.
(٦) آل عمران ١٩٨.
(٧) الرعد ٢٢ ـ ٢٤.
(٨) الأنفال ٢ ـ ٤.
(٩) تفسير جوامع الجامع، أمين الدين الطبرسي، مؤسسة النشر والطبع، جامعة طهران، طهران، ط٣، ١٤١٢هـ ٢/ ٢.

لا ينفد ولا يعتريه كدر ولا يُخشى نقصانه[١]. وقال تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[٢]. ففي هذه الآية نجد البشرى للمؤمنين في الحياة الدنيا قبل الآخرة وهي تثبيهم على إيمانهم[٣] في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة الإيمان؛ لأنّه ثابت بالحجج والأدلة. وقيل معناه يثبت الله المؤمنين بسبب كلمة التوحيد وحرمتها في الحياة الدنيا؛ حتى لا يزلّوا ولا يضلّوا عن طريق الحقّ، ويثبتهم بها حتى لا يزلّوا ولا يضلّوا عن طريق الجنة. وقيل معناه يثبتهم بالتمكين في الأرض والنصرة والفتح في الدنيا وبإسكانهم الجنة في الآخرة[٤].

في آية أخرى نجد الخالق تعالى يبشر أولياءه في الحياة الدنيا والآخرة بقوله: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[٥]. والبشرى في الحياة الدنيا فيها أقوال، أحدها أنّ البشرى: هي ما بشرهم الله تعالى به في القرآن على الأعمال الصالحة... عن الزجاج والفراء، وثانيها أن البشارة في الحياة الدنيا بشارة الملائكة عليهم السلام للمؤمنين عند موتهم بأن لا تخافوا ولا تحزنوا. أبشروا بالجنة عن قتادة والزهري والضحاك والجبائي، وثالثها أنّها في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو تُرى له. وفي الآخرة الجنة[٦].

من صور الترغيب الرائعة التي تظهر عبر نصوص السرد الوصفي القرآني الترغيب عن طريق وصف جنان الخلد، وتصويرها ذلك التصوير البانورامي الذي يُشعر المتلقي سامعاً وقارئاً بجمال تلك الصور التي تأخذ لبّه وتحلّق به في الجو الملكوتي الذي ما انفكّ يسحره ويرغبه في الإيمان من أجل الوصول إلى هذه الجنان. قال تعالى: (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً)[٧].

تتناول هذه الآيات تصوير الجنان وشرح نعمها. وعددها فيها على الأقل خمس عشرة نعمة، فتتحدث في البدء عن المسكن والملبس، ثم تذكر حالة الإتكاء على الأرائك إشارة إلى اطمئنانهم وارتياحهم؛ لأنّ الإنسان يعيش حالةً من الاطمئنان والهدوء. وتشير الآيات إلى الاعتدال الكامل للجو في الجنان، وإلى نعمة دنو الظلال وتذليل القطوف فليست هناك من مشكلة لقطف الثمار، ولا شوكة لتدخل في اليد، ولا جهد ومشقة من أجل قطف هذه الثمار، ثم توضح كيفية الاستضافة لضيوف جنان الله تعالى، وأدوات الضيافة التي أعدّها الخالق تعالى لعباده المؤمنين[٨].

في نصوص السرد الوصفي القرآني التي تنتهج سبيل الترهيب نجد الباري يسرد صفات الكافرين والفاسقين كالكفر، والكذب، والنفاق، والظلم، والاستكبار ونقض العهد والجحود، وغيرها من الصفات الذميمة، ثم يذكر الجزاء الأخروي لمن اتصف بهذه الصفات، وعمل هذه الأعمال، وهو عذاب جهنم. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً)[٩]. وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)[١٠]. فأي ترهيب هذا الذي يرهب الله به الكاذبين والمستكبرين؟ وأي تصوير لهذا العذاب الذي سيناهم جزاء أعمالهم؟ فالقرآن يرهب هؤلاء الذين لا يخضعون لآيات الله ولا يستسلمون للحق بعدم تفتح أبواب السماء لهم. وقد أشار الامام الباقر (ع) إلى هذا المعنى بقوله: أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ السماء نادى منادٍ: اهبطوا به إلى سجين. ثم تزداد قوة الترهيب باستحالة دخولهم الجنة، فهم لا يدخلونها حتى يلج الجمل في سم الخياط، وفي هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر. وفي الحقيقة اختير هذا المثال للإخبار عن عدم إمكان دخول هؤلاء في الجنة بصورة حسية[١١]. ويزداد الوعيد قوة في الآية اللاحقة التي تبين مصيرهم الذي سيؤولون إليه فـلهم من جهنم مهاد مهدته ذنوبهم فراشاً من النار، ومن فوقهم غواشٍ تحجب عنهم الرؤية فيما تثيره من الدخان الذي يغشى العيون ويمنعها من الإبصار المفتوح[١٢]. وهذا هو جزاء

(١) الجديد في تفسير القرآن، الشيخ محمد السبزواري النجفي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٢هـ ٣/ ٢٥٤.
(٢) إبراهيم ٢٧.
(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو جعفر الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ ٦/ ٢٩٣.
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الدين الطبرسي، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٣٧٩هـ ٣/ ٣١٤.
(٥) يونس ٦٢ ـ ٦٤.
(٦) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٣/ ١١٩.
(٧) الإنسان ١٢ ـ ١٨.
(٨) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ١٩/ ٢٣٢.
(٩) النساء ٥٦.
(١٠) الأعراف ٤٠ ـ ٤١.
(١١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٥/ ٤١.
(١٢) من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله، دار الزهراء للطباعة

الظالمين الذي أعده الله لهم.

من خلال استقرائنا لآيات الترهيب وجدنا عدداً منها ترهب الكافرين وتوعدهم بالخزي والعذاب في الحياة الدنيا، قبل عذاب الآخرة. وفي ذلك زيادة في ترهيبهم وإخافتهم، وليكون هذا الوعيد حافزاً لهم على تجنب هذه الأعمال المحرمة؛ لأن الكثير منهم يخاف من خزي الدنيا وعذابها؛ لأنّ هذا الخزي والعذاب قد يتحقق فعلاً، وبذلك يكون شيئاً ملموساً ومحسوساً لهم، أمّا عذاب الآخرة فهو غير محسوس بالنسبة لهم؛ لأنّهم لا يؤمنون بها أصلاً فهم يصرحون بقولهم: (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ)[١]؛ لذلك نجد الباري جلّ شأنه يرهبهم في الدنيا علّهم يرجعون عن غيّهم. قال تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[٢].

من صور الترهيب المخيفة والمرعبة، تلك التي يصف فيها الخالق تعالى جهنم وعذابها ودركاتها، وما يصيب الكافرين فيها من عذاب أليم. وتبدو هذه الصور مخيفة قاتمة مشبعة بجو الرعب والخوف والهلع من المصير الذي ينتظرهم. ومن خلال التصوير الإلهي لهذه المشاهد نكاد نسمع أنين المعذبين وصراخهم، وتكلّم أيديهم وشهادة أرجلهم[٣]، وشهيق جهنّم وفورانها وتميّزها غيظاً من هؤلاء الكافرين[٤]، ونكاد نرى إحاطة سرادقها بالظالمين[٥]، وثياب النار التي قطعت لهم والحميم الذي يصب فوق رؤوسهم ومقامع الحديد التي أعدّت لهم[٦]، وشجرة الزقوم التي طلعها كأنّه رؤوس الشياطين[٧]، ونكاد نحسّ حرارة الماء المشابه للمهل الذي يشوي الوجوه[٨]، وبمرارة ونتانة وحرارة الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع[٩]. كل هذه الصور وغيرها، وكلّ هذا الوصف هدفه إخافة هؤلاء الناس ودفعهم إلى ترك الكفر وسلوك طريق الإيمان. قال تعالى: (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)[١٠]. وقد روي أن قريشاً لمّا سمعت هذه الآية قالت: ما نعرف هذه الشجرة... فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية زقمينا. فأتته الجارية بتمر وزبد. فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد (ص) فيزعم أن النار تنبت الشجر، والنار تحرق الشجر، فأنزل الله سبحانه هذه الآية[١١]. والزقوم شجرة تنبت في قعر جهنم وأغصانها ترفع إلى دركاتها. وقد شبّه طلعها برؤوس الشياطين مبالغة في القبح والتشويه في الصورة، فحسُن التشبيه في القبح برؤوس الشياطين، وهذا من باب التشبيه بالمتخيل لا بالمحسوس[١٢]. وقد ورد وصف هذه الشجرة أيضاً في قوله تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)[١٣].

في آية أخرى يرهب الله سبحانه الكافرين بعذاب جهنم، ثم يمعن في ترهيبهم وإخافتهم من خلال وصف شهيقها وفورانها، وتميزها من الغيظ، هذا التميز يشعر بشدة ما جناه أولئك الكفار، حتى لقد شعرت به واغتاظت منه وهي التي لا تحسّ، فصورها بأنّها مخلوق ضخم عابس غضبان يغلي صدره حقداً وغيظاً على الكافرين. قال تعالى: (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ

والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٠/ ٦٣.
(١) الواقعة ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) المائدة ٣٣.
(٣) ينظر: يس ٦٥.
(٤) ينظر:الملك ٧ ـ ٨.
(٥) ينظر:الكهف ٢٩.
(٦) ينظر:الحج ١٩ ـ ٢١.
(٧) ينظر:الصافات ٦٥.
(٨) ينظر: الكهف ٢٩.
(٩) ينظر: الغاشية ٦ ـ ٧.
(١٠) الصافات ٦٢ ـ ٦٨.
(١١) بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي، مطبعة جامعة طهران، طهران ط٢، ١٣٨٥هـ ٣/ ٢٩٧.
(١٢) ينظر: مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر، ميرسيد علي الحائري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٧٨هـ ٩/ ١١٧.
(١٣) الدخان ٤٣ ـ ٤٥.

مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)[١]. فهذا هو مصيرهم الذي كانوا يوعدون.

ثانياً: وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون .

المستوى الثاني من مستويات السرد الوصفي القرآني، من حيث كثرة عدد نصوصه، هو مستوى وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون. وكان باعث اختيارنا هذه التسمية، هو أن الكثير من آياته تنتهي على شاكلة قوله تعالى: (لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢] و(لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[٣] و(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)(٤)و (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[٥]، فضلاً عن أنّ الكثير من الآيات التي تحمل المعنى نفسه، تتحدث عن آيات الله تعالى، كما أن القسم الآخر من آياته تسرد قدرة الله تعالى وعلمه بغيب السماوات والأرض، وتسييره هذا الكون الواسع بأرضه وسماواته، فيما كان القسم الثالث منها يسرد صفات الله تعالى، نحو قوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[٦]

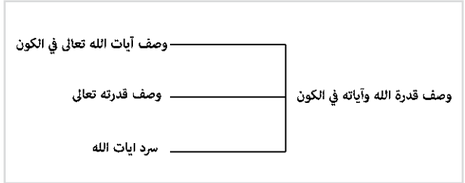

إنّ نصوص السرد الوصفي القرآني الدالة على قدرة الله وآياته في الكون كثيرة، إذ اعتمد القرآن الكريم فيها أسلوب الوصف الدقيق والمعمّق، ثم الاستدلال بهذا الوصف على وجود صانع وخالق حكيم لها عن طريق البرهان الذي يخاطب العقل[٧]، فالوصف لهذا الكون الواسع، وهذه الأجرام السماوية، ولهذا التسخير للشمس والقمر والليل والنهار والرياح والسحاب والمطر والكواكب وغيرها من الآيات، عبارة عن براهين متتابعة تخاطب عقول الناس، وتفهمهم أنّ ثمة خالقاً حكيماً خلق هذه الأشياء، وسخّرها بقدرته لهم. فهل يتفكرون بهذه القدرة العظيمة؟ وهل يعقلون؟. قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٨].

من خلال التمعّن في آيات القدرة الإلهية اللامحدودة نجد القرآن يلوّن الاستدلال بالفخم من المحسوسات على الخالق القادر، فيجعله مرة بالسماوات والأرض، ومرة بالسماوات والأرض وما بينهما من عناصر الطبيعة، وقد يتفرع الحديث عن خلق السماوات والأرض من أجل إثبات الخالق سبحانه إلى ما في العالم العلوي من آيات بينات دالة على ذلك. فالشمس بضيائها الوهاج، والقمر بنوره الفضي الأخّاذ، آيتان من آيات الله التي يقع عليها الحس كثيراً، فلو تأمل فيهما الإنسان تأمل المعتبر، لعلِم أنهما لم يخلقا عبثاً، ولم يقعا صدفة، وأنّهما، وهما بهذا التسخير والنظام العجيب، لا بد لهما من موجد أوجدهما، ومسخّر سخّرهما بهذه الكيفية التي تلفت الأنظار[٩]. ولا يقتصر هذا الكلام على السماوات والأرض والشمس والقمر، وإنّما يشمل بقية الآيات الأخرى كخلق الانسان والدواب، وإرسال الرياح، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تبعث على تأمل الإنسان فيها تأمل المتفكّر المعتبر بخلق الله تعالى.

اشرنا فيما تقدم من الكلام أن قسماً كبيراً من نصوص هذا المستوى من السرد الوصفي القرآني تصف آيات الله التي يريها للناس، والقصد منها هو بعث المتلقي على التفكّر والتدبّر فيها، وإفهامه بأنّ هذه الآيات العظيمة إنّما يحدثها الخالق سبحانه. فكل حادث لا بد له من محدث ـ كما يرى علماء العقائد ـ وهذا الكون المخلوق هو من إبداع الباري ومن آياته العظيمة فـالكون ـ أي كل ما سوى الله ـ مخلوق لله تعالى، وليس واقع الكون هذا سوى التعلّق، والربط بالله تعالى، وليست الكائنات في غنى عن الحق تعالى ولا لحظة واحدة، ومعنى قولنا: إنّ الكون مخلوق لله، هو أنّ الكون خُلق بإرادته ومشيئته[١٠] وفي هذا الخلق تتجلى آيات الله. قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[١١]. وقال: (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

(١) الملك ٦ ـ ٩.
(٢) البقرة ١٦٤.
(٣) آل عمران ١٩٠.
(٤) النحل ٦٥.
(٥) الرعد ٣.
(٦) الحديد ١ ـ ٣.
(٧) ينظر: الوصف في القرآن الكريم دراسة بلاغية، موسى سلوم الأمير، أطروحة دكتوراه كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٠م، ٣١.
(٨) البقرة ١٦٤.
(٩) الطبيعة في القرآن الكريم، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ٢٤٩.
(١٠) العقيدة الإسلامية، جعفر السبحاني، الوكالة العالمية للتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٣.
(١١) آل عمران ١٩٠.

لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ)[١]. فالآيات هي الأدلة الواضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته لأولي الألباب، للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عمّا فيها من عجائب الفطر[٢].

لم يقتصر ذكر آيات الله على ما تقدم، بل تتعدد النصوص، وتتعدد الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه. قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٣]. في هاتين الآيتين نجد الباري يسرد ويصف الكثير من آياته، فهو الذي بسط الأرض لتثبت عليها الأقدام، وجعل منها جبالاً ثوابت، وأنهاراً جارية، وجعل فيها من كلّ أنواع الثمرات، صنفين اثنين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والليل يغشي النهار فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً. وفي ذلك آياتٌ لقوم يتفكرون فيها، فإن تكوّنها وتخصّصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبّر أمرها، وهيّأ أسبابها. وفي الأرض قطع متجاورات بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة. وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبالعكس، ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه ما كانت كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية. وفيها بساتين فيها أنواع الأشجار والزروع. والنخيل صنوان أصلها واحد، وغير صنوان متفرقات مختلفات الأصول تسقى بماء واحد، ولكن بعضها أفضل من بعض في الطعم والشكل والحجم والرائحة، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم. فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلاّ بتخصيص قادر مختار حكيم.[٤]

ثمة قسم آخر من الآيات تصف قدرة الله تعالى وتسييره لهذا الكون الواسع حولنا، وهي الآيات الكونية فـمنها ما يشير إلى سنته تعالى وطريقته في إيجاد المخلوقات، وفي تدبير أمرها، ومنها ما يشير إلى أنواع المخلوقات ودلالاتها من حيث التكوين والتخصيص بالصفات، ثم الهداية إلى غايتها المحددة التي خلقت من أجلها...فالآيات الكونية على نوعين: نوع يوضح المنهج الإلهي والسنن الحكيمة في إيجاد الخلق وإنشاء الحوادث ونوع يتحدث عن المخلوقات ويصف نظام إيجادها الحكيم وفقاً لأحكام سنته، وتنفيذاً لإرادته ومشيئته، ويصف ما فيها من رحمات ونعم للعباد[٥].

من أمثلة النوع الأول من الآيات الكونية قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٦)، وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)[٧]. فالآيتان الكريمتان توجهان الأنظار إلى المنهج الإلهي في خلق الخلق بأنواعه المختلفة، وإلى سنته في إيجاد هذه المخلوقات على اختلاف أشكالها وصورها.

ظهر النوع الثاني من الآيات الكونية في الكثير من النصوص القرآنية، حيث يقول تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[٨]. فالآيات

(١) يونس ٦.
(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١/ ٤٨٧.
(٣) الرعد ٣ ـ ٤.
(٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمّى بتفسير البيضاوي، القاضي ناصر الدين البيضاوي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م ١/ ٢٥٤.
(٥) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد، دار المعارف، مصر، ط٣، ٣٤ ـ ٣٥.
(٦) النور ٤٥.
(٧) الشورى ٢٨ ـ ٢٩.
(٨) المؤمنون ١٢ ـ ١٤.

الشريفات تصف لنا نظام خلق الإنسان عبر مراحله المتعددة والمتتابعة منذ أن كان طيناً، ثم نطفة في صلب الرجل، ثم علقة في رحم الأم، فمضغة فعظاماً، ثم كسوة العظام باللحم، حتى يكون خلقاً كاملاً بعد أن مرّ بهذه المراحل المنتظمة. كل ذلك بإرادته ومشيئته وحكمته وقدرته تعالى.

إنّ النظام الإلهي في تسيير الكون نظام دقيق كل الدقة، فكل شيء عند الخالق بمقدار، وكل آية من آيات الكون تسير على وفق نسق محدد لها لا تحيد عنه قيد أنملة. قال تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[١]، فالآيات الكريمات تتحدث عن آثار عظمة الله في عالم الوجود، وعن حلقة أخرى من حلقات الآيات الكونية، فهذا النهار المضيء يعقبه ليل مظلم، وهذه الشمس تتحرك بشكل مستمر بحركة دقيقة ومنتظمة في هذا الفضاء اللامتناهي، بتقديره سبحانه، ثم تأتي حركة القمر في تلك المنازل التي حُسبت بدقة متناهية. هذا النظام الدقيق والعجيب ينظم حياة الانسان من جهة، ومن جهة أخرى فهو تقويم سماوي طبيعي لا يحتاج إلى تعلم القراءة والكتابة لمتابعته، بحيث أن أي إنسان يستطيع، بقليل من الدقة والدراية بأوضاع القمر خلال الليالي المختلفة، أن يحدد أية ليلة هي تلك الليلة. وهذا النظام ثابت ودائم على مدى السنين والشهور، فقد وضع سبحانه نظاماً وبرنامجاً لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال في وضع الشمس والقمر وحركتهما، وبذا ثبت تاريخ البشر وانتظم بشكل كامل بقدرته سبحانه[٢].

يسرد الباري جلّ شأنه في بعض من آيات المستوى الثاني من مستويات السرد الوصفي القرآني صفاته سبحانه، والهدف من ذلك بيان قدرته وكماله وعظمته أولاً، وتنزيهه عن الصفات السلبية ثانياً. وقد عني علماء العقائد بهذا النوع من الآيات عناية كبيرة؛ لأنّها تمثل الأصل الأول من أصول الدين عند المسلمين، وهو أصل التوحيد. فبالامكان معرفته تعالى عن طريق صفاته الجمالية الثبوتية والجلالية السلبية والمقصود من الصفات الجمالية هي الصفات التي تدل على كمال الله في وجوده، وذلك كالعلم، والقدرة، والحياة، والإرادة، والاختيار وما شابه ذلك، وتسمى بالصفات الثبوتية أيضاً. والمقصود من الصفات الجلالية هي الصفات التي يجلّ الله تعالى عن وصفه بها؛ لأنّ هذه الصفات تدل على نقص الموصوف بها وعجزه، والله تعالى غنيٌّ غنىً مطلقاً، ومنزه عن كل نقص وعيب، والجسمانية والاحتياج إلى المكان والزمان، والتركيب وأمثاله من جملة هذه الصفات، وتسمى هذه الصفات أيضاً بالصفات السلبية في مقابل الصفات الثبوتية[٣].

من الآيات التي تسرد الصفات الجمالية لله تعالى قوله: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[٤]. حيث تبدأ الآيات بتوحيد الله تعالى، وإذا كان الله هو سرّ العقيدة في مضمونها الفكري والروحي والعملي، فلا بد للمؤمن أن يتمثله بصفاته الجمالية التي توحي للإنسان بحركة الإيمان في العقل والشعور والحياة؛ ليعيش الإنسان مع هذه الصفات في رحلة المسيرة الإنسانية الباحثة عن الله، المنطلقة إليه من خلال مواقع طاعته ورضاه. وهذا ما تريد هذه الآيات إشاعته في النفس. هو الله لا إله إلاّ هو، وهذه هي الحقيقة التوحيدية التي تنزع من شعور الإنسان كل لون من ألوان الشرك فيما يتخذه الناس من آلهة مزعومة على مستوى الحجر أو المخلوق الحي من إنسان وملك وجان. ويبقى الإنسان مع الله وحده في خط العقيدة الواحدة، والنهج الموحّد في حركته في الحياة. والله هو عالم الغيب والشهادة، فليس هناك عالم مستور عنه؛ لأنّ الغيب والشهادة يستويان لديه، ولأن الكون الخفي مكشوف له تماماً، كما هو الكون البارز؛ لأنّه الخالق للكون كلّه. وهو الرحمن الرحيم الذي يستشعر عباده رحمته في مفردات وجودهم، كما كانوا صدى رحمته في أصل هذا الوجود. وينطلق الحديث عن التوحيد في الآية التالية؛ لأنّ هذه المسألة هي الأساس في الارتباط به، والانفصال عن غيره في جو العقيدة والعمل. فهو الملك الذي يستمد كل مالك منه ملكه، والقدوس الذي يعبّر عن القمة في النزاهة والطهارة، والسلام الذي يوحي بالأمن والطمأنينة والاستقرار في علاقة الإنسان به، والمؤمن الذي يمنح الأمن من رحمته ولطفه، والمهيمن المسيطر على الأمر كله فيما توحي به الكلمة من شمولية السلطة والتدبير والقدرة، والعزيز الغالب الذي لا يغلبه شيء، والجبار الذي امتاز بالجبروت الذي تنفذ إرادته في خلقه، والمتكبر الذي ارتدى رداء الكبرياء، الذي لا يملك أحد أن يرتديه، سبحانه عمّا يشركون، فهو المنزّه عن كل ندٍ ونظير وشبيه. ثم تضيف الآية التالية صفات أخرى، فهو الخالقُ الذي خلق كل شيء وأبدعه، والبارئ الذي برأ كل شيء وأخرجه من العدم، فمنه كان الوجود كلّه، والمصور الذي أبدع صورة الأشياء في ملامحها المتنوعة التي تمثل الجمال والإبداع

(١) يس ٣٧ ـ ٤٠.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٤/ ١٦٧.
(٣) العقيدة الإسلامية، جعفر السبحاني، ٦٦.
(٤) الحشر ٢٢ ـ ٢٤.

والقدرة العظيمة من خلال التمايز في الملامح والأشكال بحيث أعطى كل شيء شخصيته الخاصة المميزة، على أساس اختلاف الصورة التي صنعها من غير مثال. فقد ابتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى التي توحي للناس بكل معنى طيب طاهر جميل رائع، فيما يستوحونه من صفاته في حياتهم[١].

هناك آيات أخرى تسرد الصفات الجلالية لله سبحانه، كتنزهه عن اتخاذ الولد والشريك، وعن كل نقص وعيب. ومن أمثلتها قوله تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[٢]. فهنا يؤكد سبحانه أدلة توحيده في الآية الشريفة، فهو لم يجعل ولدَ غيره ولداً لنفسه؛ لاستحالة ذلك عليه، ولم يكن معه إله ليشاركه في ألوهيته، إذ لو كان معه إلهٌ آخر لذهب كل إله بما خلق، ولميّز كل إله خلقه عن خلق غيرِه ومنعه من الاستيلاء عليه، ولعلا بعضهم على بعض، ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالبته وفي هذا دلالة عجيبة في التوحيد، وهو أن كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً يكون قادراً لذاته فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة فيكون غالباً ومغلوباً من حيث أنّه قادر لذاته، وأيضاً فإنّ من ضرورة كل قادر صحة التمانع بينهما، فلو صحّ وجود إلهين صحّ التمانع بينهما من حيث أنّهما قادران، وامتنع التمانع بينهما من حيث أنّهما قادران للذات، وهذا محال. وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن؛ لأنّه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمنت ما تضمنته هذه فإنّها قد تضمنت دليلين باهرين على وحدانية الله، وكمال قدرته[٣]، وتنزهه عما وصفوه به.

ثالثاً: وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده.

امتاز القرآن الكريم بعنايته الكبيرة بوصف أحوال يوم القيامة ومشاهده، فليس وصفه وتشريعه دنيوياً محضاً لا نظر فيه إلى الآخر كما نجده في التوراة الرائجة، فإنّها مع كبر حجمها لا نجد فيها مورداً تعرضت فيه لوجود القيامة، ولم تخبر عن عالم آخر للجزاء، على الأعمال الحسنة والقبيحة[٤]، بينما نجد القرآن الكريم يصف لنا أحوال الدنيا والآخرة، ويعنى بهما عناية كبيرة؛ لذلك نجد النبي الأكرم (ص) يصفه بقوله: فيه ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم[٥]، فهو يسرد لنا أخبار الأمم الماضية، وأخبار النشأة الأخرى من عالمي البرزخ والحساب، والجزاء على الأعمال[٦]. إنّه كتاب شامل جامع يصف لنا أحوال الأمم الماضية، وأحوال الدنيا، ومشاهد الآخرة.

اعتنى القرآن الكريم بوصف أحوال يوم القيامة ومشاهده، كالنفخ في الصور، الذي عبّر عنه بتعابير مختلفة، كالصيحة الأولى والثانية، والصاخة، والنقر في الناقور، والراجفة والرادفة، وعني بوصف الحوادث الكونية التي تقع في السماء وتصيب النجوم والكواكب والشمس والقمر والأرض، كما عني بوصف مشاهد البعث والحساب، والنعيم في الجنان ودرجاتها، والعذاب في جهنم ودركاتها، فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وُعد به الناس بعد هذا العالم الحاضر، موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحَيّاً متحركاً ينبض بالحركة، وبارزاً شاخصاً كأنّه أمامنا، وعاش الناس في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده على تعددها واختلافها، وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم من النار شواظ، وهبّ إليهم من الجنة نسيم، ومن ثمّ باتوا يعرفون هذا العالم قبل حدوثه في ذلك اليوم الموعود[٧].

شكّل الزمن في التوظيف القرآني ظاهرة قائمة بذاتها، تجاوزت إفهامية الأدباء، واستقرائية الفلاسفة، فهو في تعامله مع الأفعال ـ بمستوياتها الثلاثة ـ لا يخضعها لزمنيتها النحوية، بل يتجاوزها إلى

(١) ينظر: من وحي القرآن ٢٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) المؤمنون ٩١ ـ ٩٢.
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ٤/ ١١٦.
(٤) البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، منشورات دار التوحيد للنشر والتوزيع، الكويت، ط ٤، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، ٧٦.
(٥) نفسه ٢٧.
(٦) ينظر: نفسه ٢٧.
(٧) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعارف، مصر، ١٩٦١، ٤٦.

مستوى دلالي أوسع، يتمثل في إعادة خلق وتشكيل القصدية الزمنية. فمثلاً دلالة الماضي تأخذ منعطفاً انعكاسياً يحيلها في نهاية الأمر إلى مستقبل[١]. وهذا ما نجده بشكل جلي في نصوص مشاهد القيامة كقوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)[٢]

وقوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)[٣]. ولعلّ السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ الباري عبّر عن هذه الأحداث المستقبلية بصيغة الماضي؛ لتأكيد حدوثها، فالتعبير عنها بهذه الصيغة يشعر متلقي النص بأنّها قد حدثت، أو ستحدث مستقبلاً لا محالة.

ثمة ظاهرة أخرى تلفت النظر في مشاهد القيامة، ألا وهي الاستغناء عن الفاعل، إمّا ببناء الفعل للمجهول، وإمّا أن يستغني النص القرآني عن ذكر الفاعل بإسناده إلى غير فاعله، مطاوعة أو مجازاً. ومثال بناء الفعل للمجهول قوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)[٤]، وقوله تعالى: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)[٥]. ومثال الحالة الثانية قوله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)(٦)، وقوله: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ *وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)[٧]. ومن الممكن أن يكون اطّراد هذه الظاهرة الأسلوبية باعثُه عدّة أسباب، فبناء الفاعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه. والمطاوعة فيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائياً، أو على وجه التسخير، وكأنّه ليس في حاجة إلى فاعل، والإسناد المجازي يعطي المسند إليه فاعلية محققة، يستغني بها عن ذكر الفاعل الأصلي[٨]. وقد تكون ثمة أسباب أخرى لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

إنّ محاولة استكناه نصوص السرد الوصفي التي تصف مشاهد القيامة تجعلنا نعتقد أنّها تنقسم على أقسام ثلاثة هي:

أ ـ وصف مقدمات يوم القيامة، والأحداث الكونية التي تحدث في ذلك اليوم.

ب ـ وصف أحوال المؤمنين، والنعيم الذي يتنعمون فيه.

ج ـ وصف أحوال الكافرين، والجحيم الذي يتعذبون فيه.

(١) مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، ١١٥.
(٢) الانفطار ١ ـ ٢.
(٣) الزلزلة ١ ـ ٢.
(٤) الحاقة ١٣ ـ ١٤.
(٥) المدثر ٨.
(٦) القمر ١.
(٧) الانشقاق ١ ـ ٤.
(٨) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، ٢٢٢ ـ ٢٢٥.

مشاهد القيامة
- وصف المقدمات والأحداث الكونية .
- وصف نعيم المؤمنين .
- وصف عذاب الكافرين .

أ ـ وصف مقدمات يوم القيامة والأحداث الكونية التي تحدث فيه.

قلنا فيما سبق: إنّ من خصوصيات القرآن الكريم أنه يقوم على التدرّج في الإفهام والإقناع؛ مراعاة لطاقة الإنسان على استيعاب مضامينه بقصد التوافق في الإبلاغ، ومراعاة لحالته النفسية، وقد تظهرت هذه الإفهامية في نصوص السرد الوصفي لمشاهد القيامة بشكل جلي، إذ إنّ أول ما يطالعنا من هذه النصوص، هو وصف النفخ في الصور في سورة الأنعام في قوله تعالى: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[٩]. وثاني هذه النصوص من حيث ترتيبها في القرآن الكريم هو ذلك النص الذي يصف لنا يوم القيامة (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)[١٠]. وثالثها يصف حدثاً كونياً، وذلك في قوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)[١١]. وهكذا نرى عملية التدرّج في الإفهام في نصوص مشاهد القيامة، حيث تبدأ النصوص اللاحقة لهذه النصوص الثلاثة المذكورة بسرد ووصف النعيم والعذاب في ذلك اليوم العظيم، فضلاً عن وصف المقدمات والأحداث الكونية.

يطالعنا القرآن الكريم بالكثير من الصور التي تصف مقدمات يوم القيامة. ومن هذه الصور النفخ في الصور، وله مرحلتان: الأولى مرحلة الإماتة وهي قبيل يوم القيامة، ويسفر عن هذا النفخ الصعق والفزع اللذان كُنّي بهما عن الموت، والثانية مرحلة الإحياء وإحضار الناس إلى المحشر للحساب[١٢]. وقد ورد ذكر النفختين في قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)[١٣] فالنفخة الأولى هي التي تميت من في السماوات والأرض إلاّ من شاء الله، وفي النفخة الثانية يقوم الناس من الأجداث لينتظروا مصيرهم.

ورد ذكر النفخ في الصور في الكثير من الآيات الكريمة، إذ يقول تعالى: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً)[١٤].

(٩) الأنعام ٧٣.
(١٠) هود ١٠٣.
(١١) إبراهيم ٤٨.
(١٢) ينظر: مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، مؤسسة الإمام الصادق ﷺ، قم، ط ١، ١٤٢٠هـ ٨/ ٢٠٧.
(١٣) الزمر ٦٨.
(١٤) الكهف ٩٩.

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)[١].

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)[٢].

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)[٣].

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)[٤].

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ)[٥].

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)[٦].

إنّ المتأمل لهذه الآيات يلاحظ أنّها تشير إلى النفخة الثانية التي هي من مقدمات يوم القيامة، حيث يُجمع الناس، ويموج بعضهم في بعض، فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون، بل ينتظرون حسابهم في حالة من الترقب والخوف والهلع.

عبّر القرآن الكريم عن النفخ في الصور بتعابير أخرى، وهي كالآتي[٧]:

١ـ الصيحة:

هي الصوت العالي، ويحكي القرآن عن تعددها كالنفخ، وهي صيحة الإماتة، وصيحة الإحياء، ويذكر الأولى في قوله:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)[٨] فهذه الصيحة عبارة عن النفخة الأولى أو نتيجتها، والناس حينها أحياء يتخاصمون بعضهم مع بعض، ولكنّها لا تمهلهم أن يوصوا بشيء أو يرجعوا إلى أهلهم فيوافيهم الموت.

وأمّا الصيحة الثانية القائمة مقام النفخة الثانية، فقد أُشير إليها بقوله تعالى: (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[٩]، فقوله جلّ شأنه (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) نظير قوله تعالى في النفخة الثانية: (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) أو قوله: (كُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ).

٢ـ الصاخة:

هي الصيحة والصوت العالي التي تكاد تصم الآذان. قال تعالى: (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)[١٠].

٣ـ الزجرة:

قال تعالى: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)[١١]. ومعنى الزجرة هو الصيحة (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) أي مُلقُون على وجه الأرض، وسميت الأرض بالساهرة؛ لأنّها لا تنام بشهادة أنّها تنبت النبات ليلاً ونهاراً[١٢].

٤ـ النقر:

قال تعالى: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ × فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ × عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)[١٣]. والمراد من النقر هو النفخ في الصور[١٤]، وهي النفخة الثانية بدلالة ما جاء بعدها من إحياء الكافرين، وأنّه يوم عسير عليهم[١٥]، وغير يسير؛ لشدة الأهوال التي سيتعرضون لها.

٥ـ الراجفة والرادفة:

قال تعالى: (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)[١٦]. والراجفة صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخّض، وهي تشير إلى النفخة الأولى، والرادفة كل شيء تبع شيئاً آخر فقد ردفه، ولعل المقصود منها هنا النفخة الثانية التي

(١) طه ١٠٢.
(٢) المؤمنون ١٠١.
(٣) النمل ٨٧.
(٤) يس ٥١.
(٥) ق ٢٠.
(٦) الحاقة ١٣.
(٧) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢٠٩ ـ ٢١١.
(٨) يس ٤٩ ـ ٥٠.
(٩) يس ٥٣.
(١٠) عبس ٣٣ ـ ٣٧.
(١١) النازعات ١٣ ـ ١٤.
(١٢) مفاهيم القرآن ٨/ ٢١١.
(١٣) المدثر ٨ ـ ١٠.
(١٤) ينظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢٨٥.
(١٥) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢١١.
(١٦) النازعات ٦ ـ ٨.

تعقب النفخة الأولى، وهي التي يبعث معها الخلق[١].

إنّ قيام الساعة يتزامن مع حوادث كونية يتلاشى فيها النظام الكوني السائد وينهار ويزول؛ لانتهاء أجله، ويحلّ محلّه نظام آخر أكمل منه فيكون الزوال مقدمة لنظام آخر، غير النظام الذي كنا نعيشه. وهناك حوادث كونية كثيرة تشير إلى هذا التغيير الكبير، يمكن تقسيمها إلى عدة مستويات هي.

١ـ السماء في مشاهد القيامة.

يحكي القرآن الكريم مشاهد الساعة في الكثير من آياته الكريمة، ومن هذه المشاهد تلك التغيرات والحوادث التي تقع في السماء، كالطي والانشقاق والانفطار والانفتاح والانفراج والتبدّل والمور، إلى غير ذلك من التعابير، وكل تعبير يشير إلى جانب من تلك الحوادث، يقول تعالى:

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)[٢].

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)[٣].

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً)[٤].

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)[٥].

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)[٦].

(وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ)[٧].

(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً)[٨].

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ)[٩].

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ)[١٠].

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)[١١].

تصوّر هذه الآيات الكريمة السماء في يوم القيامة، والحوادث التي تطرأ عليها، فهي ليست السماء التي كانت تتراءى لنا في الحياة الدنيا كأنّها سقف محفوظ فوقنا، بل هي سماء تطوى كطي السجل، وتمور وتنشق، وتكون كالصفر المذاب، وتنفرج، وتنفتح، وتُكشط، وتنفطر، وهذه أوصاف تبعث على الخوف من ذلك اليوم، وترينا أنّ نظام السماء في الحياة الدنيا قد تغيّر بحلول يوم القيامة.

٢ـ النجوم والشمس والقمر في مشاهد القيامة.

إنّ النجوم التي تزيّن السماء، وتهدي الانسان ستنطمس وتنكدر، وإنّ الكواكب ستنتثر، كما أن الشمس التي يتنعم الانسان بضيائها ودفئها ستتكور، ويُلف ضوؤها فيذهب انبساطه في الآفاق ويزول أثره، والقمر سيخسف ويذهب نوره الذي يهدي الناس في ظلمات البر والبحر. قال تعالى:

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)[١٢].

(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)[١٣].

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)[١٤].

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[١٥].

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)[١٦].

فهذه كلها آيات كونية تنبئ عن يوم القيامة، وتمهد له، وتشير إلى تغيّر النظام الكوني. فعملية جمع الشمس والقمر تظهر لنا زوال النظام السائد عليهما فالفاصل الموجود بينهما سيزول يوم القيامة، ويكونان مقترنين[١٧].

٣ـ الأرض في مشاهد القيامة.

يصف الذكر الحكيم الأرض في يوم القيامة، وما سيحدث فيها، فهذا الكوكب السيّار الذي نعيش عليه بكل طمأنينة وهدوء، سيتحول إلى كوكب مضطرب بأنواع الاضطرابات، ومتحرك بأنواع الحركات التي تدل على تغيّر نظامه الذي كان يسير عليه عبر الأزمان. يقول تعالى:

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)[١٨].

(يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً)[١٩].

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً)[٢٠].

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)[٢١].

(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً)[٢٢].

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)[٢٣].

تصف الآيات الكريمة وضع الأرض عند قيام الساعة. والقرآن الكريم يستعمل، في اظهاره مشاهد الساعة في الأرض، أفعال التبدّل

(١) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢١١.
(٢) ابراهيم ٤٨.
(٣) الأنبياء ١٠٤.
(٤) الطور ٩.
(٥) الرحمن ٣٧.
(٦) المعارج ٨.
(٧) المرسلات ٩.
(٨) النبأ ١٩.
(٩) التكوير ١١.
(١٠) الانفطار ١.
(١١) الانشقاق ١.
(١٢) المرسلات ٨.
(١٣) التكوير ٢.
(١٤) الانفطار ٢.
(١٥) التكوير ١.
(١٦) القيامة ٧ ـ ٩.
(١٧) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢٠٣.
(١٨) ابراهيم ٤٨.
(١٩) ق ٤٤.
(٢٠) الواقعة ٤.
(٢١) الانشقاق ٣ ـ ٥.
(٢٢) الفجر ٢١.
(٢٣) الزلزلة ١ ـ ٢.

والتشقق والرجّ والمدّ والإلقاء والتخلّي، والدكّ والزلزال وإخراج الأثقال، وكلها أفعال تدل على الحركة الشديدة والاضطراب؛ لما سيقع عليها في ذلك اليوم المشهود.

إنّ هذه الطائفة من الآيات تصف حال الأرض عند قيام الساعة. وبعدما يحلّ النظام الكوني الجديد تكون الأرض مشرقة بنور ربّها، وفي أحسن حال بعدما كانت مضطربة فيما مضى. وفي ذلك يقول سبحانه:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)[١]. فأين الأرض المضطربة التي صادفت تلك الحوادث الكثيرة والصعبة، من هذه الأرض المشرقة بنور ربّها[٢]؟!.

٤ـ البحار في مشاهد القيامة.

يصف القرآن الكريم وضع البحار عند قيام الساعة في أكثر من آية. يقول سبحانه:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)[٣].

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)[٤].

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)[٥].

تصور الآيات الكريمة وضع البحار يوم القيامة، فهي بحار هائجة، ومختلطة بعضها بالآخر، والمراد من تسجيرها وتفجيرها هو اختلاط عذب مائها بمالحه، والمالح بالعذب، وبذلك يصير الجميع بحراً واحداً، على خلاف ما في هذه الدنيا، فإنّ الماء العذب ينفصل عن الملح الأجاج. قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)[٦]. وقال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ)[٧]. فهذا هو حال البحار في الحياة الدنيا، أمّا حالها يوم القيامة فهو مختلف كل الاختلاف، حيث يكون جميعها شيئاً واحداً مختلطاً كأنّها فحم ملتهب[٨].

٥ـ الجبال في مشاهد القيامة.

يرسم الذكر الحكيم صورة الجبال يوم القيامة بدقة متناهية، وعبر عدد من الصور والمناظر التي تأسر المتلقي. قال تعالى:

(وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً)[٩].

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً)[١٠].

(وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)[١١].

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً)[١٢].

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ)[١٣].

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)[١٤].

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)[١٥].

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)[١٦].

إنّ هذه الآيات تحكي طروء تحولات وتغيرات كبيرة وكثيرة على الجبال منها[١٧]:

أ ـ الحركة والسير والرجف، وهي الحركة الشديدة الاضطراب التي تسفر عن نسف الجبال من أصولها.

ب ـ في المرحلة الثانية تعود كأنّها غبار منبث في أرجاء الكون.

ج ـ وأخيراً تؤوب نهايتها إلى أطلال من تراب.

وهذه التحولات التي يمر بها النظام الكوني، توحي إلى صورة

(١) الزمر ٦٩.
(٢) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢٠٤.
(٣) الطور ٦.
(٤) التكوير ٦.
(٥) الانفطار ٣.
(٦) الفرقان ٥٣.
(٧) الرحمن ١٩.
(٨) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢٠٥.
(٩) الطور ١٠.
(١٠) الواقعة ٥ ـ ٦.
(١١) الحاقة ١٤.
(١٢) المزمل ٤.
(١٣) المرسلات ١٠.
(١٤) النبأ ٢٠.
(١٥) التكوير ٣.
(١٦) القارعة ٥.
(١٧) ينظر: مفاهيم القرآن ٨/ ٢٠٦.

كئيبة ومهولة عن وضع العالم في ذلك اليوم، ولكنّها تبشّر ـ في الوقت ذاته ـ بظهور نظام أكمل من ذي قبل. فسبحان الله الذي جعل الجبال أوتاداً للأرض في الدنيا، ثم ينسفها في الآخرة.

ب ـ وصف أحوال المؤمنين والنعيم الذي يتنعمون فيه.

يصف الباري، في مشاهد القيامة، نعيم المؤمنين في جنان الخلد، وعاقبتهم الحسنة التي سيصلون إليها عن طريق التزامهم بأوامر الله، واجتنابهم لنواهيه في الحياة الدنيا، فكانت الجنة جزاءً لهم، وكان نعيمها وحبورها وخيراتها مكافأة على أعمالهم الصالحة. قال تعالى:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)[1] فاليوم في الآية الكريمة هو يوم القيامة، والمؤمنون فيه قد نالوا جزاءهم الذي يستحقون.

في نص آخر من نصوص السرد الوصفي القرآني، يصف القرآن الكريم مجموعة خاصة من المؤمنين ستحوز على الدرجات العليا من النعيم في جنان الخلد، وهؤلاء هم السابقون حيث يقول تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً * إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ)[2] فأي نعيم هذا !؟ وأي جزاء !؟ وأي فوز ذلك الذي حصل عليه هؤلاء السابقون الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة، بعد ظهور الحق من غير تلعثم وتوان، وسبقوا في حيازة الفضائل والكمالات !؟ فهم أعلى الفئات في الجنان، وهم الأنبياء وأوصياؤهم. فقد قرّبت درجاتهم، وأعليت مراتبهم فهم يجلسون على سررٍ منسوجة بالذهب مشبكة بالدرر والياقوت، يقوم على خدمتهم ولدان مخلدون صغار السن لا يهرمون، يطوفون عليهم بأكواب وأباريق، ويسقونهم من نهر يفيض بالخمرة، لا يصيبهم الصداع بتناولها، ولا تذهب عقولهم بشربها. وتستمر الآيات في وصف نعيم السابقين، ثم تنتهي إلى فئة أخرى من فئات المؤمنين المنعمين في الجنان، هم أصحاب اليمين، وهم الفئة الأقل درجة من فئة السابقين، أمّا جزاؤهم فهو سدر لا شوك فيه وموز منضود بالثمار من الأعلى إلى الأسفل، وظل منبسط لا ينتهي أو يزول، وماء يسكب لهم أين شاءوا وكيف شاءوا، وفاكهة متعددة الأنواع والمذاقات لا تنقطع في موسم أو أوان، ولا تمنع عن متناولها[3]. وهكذا نرى هذه الآيات الكريمة تصف نعيم المؤمنين، وجزاءهم وثوابهم الذي حصلوا عليه في مشاهد القيامة، وهي مشاهد تبعث على التفاؤل والرغبة فيما أعدّه الله لعباده الصالحين، وتحثّ الناس على التمسك بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه؛ لتكون عاقبتهم هي العاقبة الحسنة التي وصفها الخالق جلّ شأنه في كتابه العزيز، في هذه الآيات ومثيلاتها التي تصف حال المؤمنين في يوم القيامة.

ج ـ وصف أحوال الكافرين والجحيم الذي يتعذبون فيه.

يصف الذكر الحكيم وضع الكافرين في مشاهد الساعة، وما سيؤول إليه مصيرهم؛ بسبب كفرهم وعنادهم واستكبارهم، وامتناعهم عن عبادة الواحد القهار. وتتعدد صور العذاب الأليم، وتتعدد طرقه. فتارة تقلب وجوههم في النار[4]، وتارة يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم[5]، وأخرى نراهم في سموم وحميم وظلٍ من يحموم[6]، ورابعة يشبهون الحُمُر المستنفرة الفارة من الأسد[7]؛ لشدة خوفهم وفزعهم. وهكذا تتعدد صور العذاب الذي يصب على الكافرين يوم القيامة، وتتعدد الآيات التي تصفه. قال تعالى:

(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً)[8]. وفي وصفهم بالزرق قولان أحدهما أن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب؛ لأنّ الروم أعداؤهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين، والثاني أن المراد العمى؛ لأنّ حدقة من يذهب نور بصره تزراق[9]. والذي نرجحه هو القول الثاني بدلالة قوله تعالى في نفس السورة: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[10].

في آية أخرى يصف الخالق الخسران الكبير الذي آل إليه الكافرون يوم القيامة، فقد تكشّفت لهم الحقائق كلها في ذلك اليوم العظيم، وبذلك أحسّوا فداحة الخسران، وسوء المصير والعاقبة. قال تعالى:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا

(١) يس ٥٥ ـ ٥٨

(٢) الواقعة ١٠ ـ ٣٤.

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤، التفسير النافع، السيد حسين الصدر، دار الكتب العلمية، بغداد، ط١، ٦/ ١٢١ـ ١٢٤.

(٤) ينظر: الأحزاب ٦٦.

(٥) ينظر: يس ٦٥.

(٦) ينظر: الواقعة ٤٢ ـ ٤٣.

(٧) ينظر: المدثر ٥٠ ـ ٥١.

(٨) طه ١٠٢.

(٩) الكشاف ٢/ ٥٥٣.

(١٠) طه ١٢٤.

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ)[1]. إنّهم خسروا أنفسهم؛ لأنّهم قذفوها بين أطباق الجحيم، وخسروا أهليهم؛ لأنّهم لن يروهم في ذلك اليوم إذا كانوا مؤمنين، وإن كانوا معهم في جهنم، فلكل امرئ منهم شأن يغنيه، ويالها من خسارة كبرى. ثم تصف الآية التالية حال هؤلاء الكافرين والعذاب الذي أُعدّ لهم، فلهم من فوقهم ظلل من النار، أي سرادقات وأطباق من النار ودخانها، ومن تحتهم ظلل، أي فرش ومهاد، وإنّما أطلق اسم الظلل على قطع النار على سبيل التوسع والتهكّم في مقابلة ما لأهل الجنة من الظلل، والمعنى أنّ النار تحيط بجوانبهم، وإنّما سمي ما تحتهم من النار ظلل مع أنّ الظلل لا تكون إلا من فوق؛ لأنّها ظلل لمن تحتهم، إذ النار دركات وهم بين أطباقها[2]. فأي خسران؟ وأي عذاب سيعذب به هؤلاء يوم القيامة؟ إنّه مشهد مخيف من مشاهد الساعة، هدفه وقصده إخافة العباد؛ ليتجنبوا هذا المصير الرهيب والمخيف، وهذا ما صرّحت به الآية الكريمة بعد أن وصفت عذاب الكافرين في نار جهنم ذلك يخوّف الله به عباده.

رابعاً: وصف أحوال الناس والإنسان.

نزل القرآن الكريم لهداية الناس، والسير بهم قدماً في طريق الحق الذي اختطّه لهم، وعليه كان من الطبيعي أن يكثر ذكر الناس والإنسان في هذا الكتاب العزيز. وتتعدد الآيات التي تخاطب الناس كمجتمع، والإنسان كفرد، وتكثر النصوص التي تسرد وتصف أحوال الناس والإنسان. ولسنا هنا بصدد دراسة الآيات التي تخاطب الناس والانسان؛ لأنّها لا تدخل في صلب موضوع بحثنا، مثل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[3]. وقوله: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)[4].

(١) الزمر ١٥ ـ ١٦.

(٢) ينظر: مقتنيات الدرر ٩/ ٢٠٢.

(٣) البقرة ٢١.

(٤) الانفطار ٦ ـ ٧.

إنّ الذي نحن بصدد دراسته في المستوى الرابع من مستويات السرد الوصفي القرآني، تلك الآيات التي تصف أحوال الناس والإنسان، وهي في قسمين رئيسين هما:

أ ـ الآيات التي تصف حال الناس كمجتمع.

ب ـ الآيات التي تصف حال الإنسان كفرد.

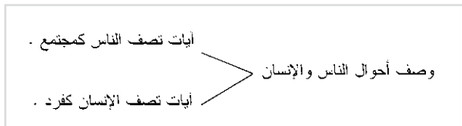

أ ـ الآيات التي تصف الناس كمجتمع.

قدمنا الحديث عن آيات السرد الوصفي القرآني التي تصف الناس؛ لأنّها ترد في القرآن الكريم أكثر من الآيات التي تصف الإنسان، ولأنّها تكثر في الأجزاء الاثنين والعشرين الأولى من الكتاب العزيز. فيما يكثر وصف الإنسان في الأجزاء الثمانية الأخيرة. وعلى كل حال فإنّ كلمة الناس، التي تطلق على الجماهير والمجتمع، وقعت موضوعاً للكثير من نصوص السرد الوصفي القرآني، مما ينبئ عن أهمية بالغة تحويها هذه الكلمة. ونحن إذ نستعرض الآيات التي تصف حال الناس. فإننا نحاول إلقاء الضوء على نقاط ثلاث تبدو مهمة في ذات نفسها.

١ـ أهمية موضع الجماهير والناس في القرآن الكريم.

٢ـ أهمية وصف المجتمع الإنساني، بوساطة إلقاء الضوء على سلوكياته وعاداته وأعرافه.

٣ـ وصف مساوئ المجتمع الإنساني ووضع اليد عليها والتنفير منها؛ لكي يتجنبها الناس، ولا يعودوا إليها.

يصف الباري عزّ ذكره سلوكيات المجتمع وعاداته في الكثير من الآيات الكريمة، إذ يقول:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)[١].

فالناس مجبولون على حبّ هذه المشتهيات الكثيرة، وقد سمّاها شهوات مبالغة وإيماء إلى أنّهم انهمكوا في محبتها[٢]، ومبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها، والقصد هو تخسيسها؛ لأنّ الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها.[٣]

في سورة الأنبياء يسرد الحق تعالى عدة سلوكيات وعادات اتصف بها الناس هي الغفلة والإعراض واللعب واللهو. يقول تعالى:

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)[٤]. إنّ هذه سلوكيات ممقوتة اتصف بها الناس، فهم في غفلة عن يوم القيامة وما فيه من أحداث مهولة، وهم معاندون معرضون، ما يأتيهم، وما ينزل عليهم من القرآن الكريم إلا استمعوه وهم يلعبون، ولا يأبهون به، ويصدون عنه أنفسهم؛ لأنّهم فضّلوا ظلام الجهل على نور الحق، وقلوبهم لاهية لا تكترث بأي شيء.[٥]

ثمة طائفة أخرى من الآيات التي تصف الناس، يتم التركيز فيها على وصف مساوئ المجتمع الإنساني، ووصف أدوائه، والقصد منها تنبيه الناس على هذه الأدواء والمساوئ، ومحاولة إفهامهم وتنبيههم ليتركوا ارتكابها، والوقوع في حبائل الشيطان. قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)[٦]

تسرد الآيات الكريمة الكثير من الصفات السيئة، والأعمال القبيحة، والطباع الرذيلة التي تصيب الناس، فتمسخهم، وتجعلهم أناساً لا فائدة مرجوة منهم، بل هم ذوو ضرر على المجتمع الإنساني، حيث تتوافر الآية على الكثير من الصفات المذمومة، وتبدأ بصفة النفاق، فهذا النوع من الناس يظهرون الايمان باللسان، ويبطنون الكفر في القلب، وهم عند الله أعظم ذنباً من الكفار المحضين. كما أنّهم مخادعون يخادعون الله والذين آمنوا، وهم بعملهم هذا يحسبون أنّهم يخدعون الله، ولكنه سبحانه عالم السر والخفيات، وسيحاسبهم على خداعهم هذا. وتضيف الآيات صفة أخرى هي مرض القلب المتجسد في النفاق والاعتقادات الفاسدة، وضعف الإدراك وغيرها من الرذائل، كما أنّهم مفسدون في الأرض، ولكنهم ينكرون فسادهم هذا، ويدّعون الصلاح كذباً، ثم أنّهم يمارسون البهتان على المؤمنين، إذ يصفونهم بالسفهاء، ألا إنّهم هم السفهاء، ولكنهم يجهلون سفههم، كما أنّهم يراءون المؤمنين بالكذب والنفاق، فإذا لقوهم قالوا آمنا كذباً ورياءً، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّما نحن مستهزئون بهؤلاء المؤمنين، ولكن الله لهم بالمرصاد، فهو الذي يستهزئ بهم، ويمدهم في طغيانهم يتحيرون في الضلال والغي. ومن صفاتهم الأخرى أنّهم استحبوا واستبدلوا الضلالة بالهدى، فما ربحوا في عملهم هذا وما اهتدوا، بل خسروا خسراناً عظيماً.[٧]

ب ـ الآيات التي تصف الإنسان كفرد.

يصف القرآن الكريم الإنسان كفرد في عدد من نصوص السرد الوصفي القرآني، وقد تمحورت الآيات التي تصف الانسان حول نقطتين جوهريتين هما:

١ـ وصف طبائع الإنسان وحالاته المختلفة، والتأكيد على رذائل الطباع.

٢ـ وصف نشأة الإنسان، ومراحل خلقه طوراً بعد طور.

إنّ استكناه الآيات التي يرد فيها ذكر الإنسان ووصفه يرينا أنّ عدداً منها يصف الصفات السيئة، والرذائل التي يتوافر عليها هذا الإنسان. قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ)[٨].

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)[٩].

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)[١٠].

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[١١].

هذه الآيات وغيرها تسرد صفات الإنسان السيئة؛ لتعرّفه

(١) آل عمران ١٤.
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي ١/ ٦٣.
(٣) ينظر: الكشاف ١/ ٤١٦.
(٤) الأنبياء ١ ـ ٣.
(٥) ينظر: التفسير النافع ٤/ ٨٢ ـ ٨٣.
(٦) البقرة ٨ ـ ١٦.
(٧) ينظر: التفسير النافع ١/ ٢٣ ـ ٢٦.
(٨) الزخرف ١٥.
(٩) المعارج ١٩ ـ ٢١.
(١٠) عبس ١٧.
(١١) العاديات ٦ ـ ٨.

قدره، ولتحسسه بفداحة الأعمال التي يرتكبها. فهو الكفور الذي يكفر بنعمة الخالق عليه، وهو الهلوع الجزوع إذا مسه الشر، وهو المنوع للإحسان إذا مسه الخير، وهو الكنود الجاحد لأنعم ربه. ومع كل هذا فإنّه يشهد على جحوده بكل صفاقة. فهل يتعظ الإنسان من هذا التذكير الإلهي الذي يذكّره بحقيقته وكنهه؟

في مجموعة أخرى من الآيات يصف الذكر الحكيم نشأة الإنسان وأطوار خلقه، منذ أن لم يكن شيئاً مذكورا، حتى يصير إنساناً سوياً كاملاً، بعد أن يمرّ بعدة مراحل. فهناك آيات تصرّح بأنّه خلق من تراب وطين وصلصال، أو من حمأ مسنون وماء مهين، ثم من نطفة في قرار مكين، حتى صار في أحسن تقويم. قال تعالى:

(أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)[١].

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً × إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)[٢].

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ × ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ × ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)[٣].

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ)[٤].

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)[٥].

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ × خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ × يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)[٦].

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)[٧].

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[٨].

وهكذا تتعدد الآيات التي تسرد وتصف نشأة الإنسان ومراحل خلقه مرحلة بعد أخرى في تناسب وترتيب عجيب، لا يقدر عليه إلاّ الخالق البارئ سبحانه، وتتعدد معها الآؤه سبحانه على خلقه، فهو الذي أوجدهم وخلقهم من العدم، وجعلهم بشراً في أحسن صورة وهيئة، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة. فهل يشكر الإنسان هذه النعم؟ وهل يعطيها حقها؟.

خامساً: التشريع.

القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع. فقد وُجدت فيه الكثير من الآيات التي تشرّع للناس أحكام الدين الإسلامي من عبادات ومعاملات. وتختص أحكام العبادات بالطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس وغيرها، على حين تختص أحكام المعاملات بالتجارة والإجارة والنكاح والطلاق والنذر والعهد واليمين والوصية والإرث وغيرها من المعاملات.

تمظهرت أكثر نصوص التشريع في القرآن الكريم عبر تقنية الخطاب، فإنّ الباري جلّ شأنه يخاطب عباده ويأمرهم باتباع أحكامه في العبادات والمعاملات. فمن أمثلة أحكام العبادات قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ × أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ)[٩].

وقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)[١٠]. ومن أمثلة آيات أحكام المعاملات قوله تعالى:

(وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً × وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)[١١].

ومن المفيد الإشارة إلى أنّ الآيات التي تعتمد تقنية الخطاب في التشريع لا تدخل في صلب موضوع بحثنا. في حين أن الآيات التي تعتمد تقنية السرد الوصفي في التشريع هي التي ستكون مجال دراستنا في المستوى الخامس من مستويات السرد الوصفي

(١) مريم ٦٧.
(٢) الانسان ١ ـ ٢.
(٣) السجدة ٧ ـ ٩.
(٤) الحجر ٢٦.
(٥) الرحمن ١٤.
(٦) الطارق ٥ ـ ٧.
(٧) النحل ٤.
(٨) التين ٤.
(٩) البقرة ١٨٣ ـ ١٨٤.
(١٠) البقرة ٤٣.
(١١) الإسراء ٣٤ ـ ٣٥.

القرآني، فقد كان هذا النوع من الآيات أقل من الآيات التي تعتمد الخطاب، ومع قلّتها، فإنّها قد تمظهرت بشكل واضح، وعبر تسعة وعشرين نصاً تقريباً.

من آيات السرد الوصفي التي تشرّع للعبادات قوله تعالى:

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)[١].

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)[٢].

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[٣].

يصف الباري في الآية الأولى الصفا والمروة بأنهما من شعائره، ثم يشرّع ويأمر بأن من حج البيت أو اعتمر فإنّ عليه أن يطّوف بهما، فهما جزء من فريضة الحج العبادية. ويأمر الناس في الآية الثانية بالحج لمن استطاع وتمكّن من أداء هذه الفريضة المقدسة، وتسرد الآية الثالثة وتصف المستحقين للصدقات من فقراء، ومساكين وغيرهم ممّن استحقوها، ثم تشير إلى أنّ هذه الصدقات فريضة عبادية شرّعها الله تعالى وأمر عباده بتطبيقها.

في قسم آخر من آيات التشريع، يشرع الله تعالى للمعاملات، كالزواج والطلاق والبيع والربا، وغيرها من المعاملات التي يُبتلى بها المسلمون في حياتهم، فهم بحاجة ماسة إلى تشريع إلهي يبيّن لهم الأحكام والحلول الشرعية لمعاملاتهم، ويميّز لهم المعاملات المحللة من المعاملات المحرّمة؛ ليعملوا بالأولى ويتجنبوا الثانية. فالقرآن الكريم دستور إلهي كفل للناس السعادة والراحة في الدارين، فمن تمسك بهذا الدستور حصل على سعادة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ × وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ × وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٤].

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٥].

يشرع السرد الوصفي القرآني في الآية الأولى لمسألة الإيلاء الذي يقع حين يحلف الزوج بالله على أن يترك مباشرة زوجته أبداً أو لمدة تزيد على أربعة أشهر، فإذا وقع الإيلاء من الزوج يُمهل مدة أربعة أشهر، ثم يخيّر بعدها بين الرجوع لزوجته مع دفع كفارة الإيلاء وبين الطلاق، فإذا رجع بعد دفع الكفارة غفر الله له ورحمه، وإذا استقام رأيه على الطلاق طلّقها. أمّا حكم المطلقة فعليها الصبر على الزواج بغير مطلقها ثلاثة أطهار، ويحرم الله عليها أن تكتم ما في بطنها من الحمل[٦]. وهكذا تستمر الآية في التشريع لمعاملة الإيلاء والطلاق. أمّا في الآية الثانية فإنّ الله تعالى يحلّ البيع؛ لفائدته ومنافعه المادية للناس، ويحرّم الربا؛ لما فيه من استغلال لحاجة الإنسان المحتاج إلى المال، ولما يخلّفه من آثار سيئة في المجتمع الإسلامي. وهكذا نرى السرد الوصفي القرآني يشرّع للناس أحكام عباداتهم ومعاملاتهم؛ ليعرفوا الحلال من الحرام، وليستقيموا في حياتهم؛ ليحصلوا على رضا الله في الدنيا والآخرة.

سادساً: وصف القرآن

كانت نصوص السرد الوصفي، التي تصف القرآن الكريم أقل النصوص من حيث عددها. ففي هذا المستوى نجد الحقّ تعالى يصف كتابه العزيز بالكثير من الصفات التي تجلّت فيه، وفي ذلك إظهار لمعجزاته، وقدرته على هداية الناس، والسير بهم قدماً في طريق الحق والخير والصلاح. قال تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)[٧].

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[٨].

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً)[٩].

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)[١٠].

(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ × لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[١١].

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ × فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)[١٢].

تؤكد الآيات التي تصف القرآن على أن هذا الكتاب العظيم كتاب هداية للناس، وتبدأ الآية الأولى بقوله ذلك الكتاب والإشارة للبعيد لإثارة انتباه المتلقي إلى كون القرآن سامي المقام،

(١) البقرة ١٥٨.
(٢) آل عمران ٩٧.
(٣) التوبة ٦٠.
(٤) البقرة ٢٢٦ ـ ٢٢٨.
(٥) البقرة ٢٧٥.
(٦) ينظر: التفسير النافع ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٧) البقرة ٢.
(٨) هود ١.
(٩) طه ١١٣.
(١٠) الزمر ٢٣.
(١١) فصلت ٤١ ـ ٤٢.
(١٢) الواقعة ٧٧ ـ ٧٨.

عالي المنزلة، لاريب فيه، فهو ليس محلاً للريب[١]، ولا ينبغي أن يُرتاب فيه. إنّه الكتاب الذي لا يحمل في آياته وفي مفاهيمه أي عنصر من العناصر التي توحي بالريب أو تقود إليه، فلا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه إذا دقّق في الخصائص الموجودة فيه، وفي المعاني الأصلية الواضحة التي إذا تأملها الإنسان وأنعم النظر فيها ووعاها وعياً صحيحاً ما ارتاب فيها، ولانكشفت أمامه كل أجواء الريب والشك والشبهة. ثم تضيف الآية صفة أخرى وهي أنّه هدىً للمتقين، وهذا هو دوره الأصيل، فهو يوجه الإنسان إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم، وهو كتاب إرشاد وتوجيه للإنسان؛ ليعرف كيف يسير، وينظم حياته في كل المجالات، وهو يحدد للإنسان الفكرة في صفاء ونقاء، ويربطه بوساطة ذلك بالمسيرة الإسلامية، ويخطط له مسيرته وحياته من خلال الأحكام الشرعية التي تعرّفه كيف يتحرك من موقع المسؤولية بهدوء واطمئنان[٢].

في الآية الثانية نجد صفات أخرى للقرآن الكريم، إذ يصفه تعالى بأنّه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، أي أثبتت دستوراً لا ينسخ أبد الدهر، ثم فصلت ببيان الحلال والحرام، وسائر ما في الشريعة الإسلامية من الأحكام، أحكمت ثم فصلت من حكيم في جميع تدابيره وأحكامه، خبير عليم بأحوال خلقه وبمصالحهم، وقيل أحكمت آيات الكتاب بالأمر والنهي، وفصّلت بالوعد والوعيد، وقيل أحكمت آياته جملة، وفصلت واحدة واحدة؛ لتبين الأحكام للمكلفين بالتفصيل، ثم قيل أحكمت في نظمها الفصيح المعجز، وفصلت بالشرح وبيان الشرع، وقيل أيضاً أحكمت فما فيها خلل ولا باطل، وفصلت بتتابع بعضها بعضاً لتفصيل الأحكام المختلفة، وكل ذلك يشمله إحكام وتفصيل آيات القرآن الكريم[٣].

صفة أخرى من صفات القرآن الكريم نجدها في الآية الثالثة المارة الذكر، وفي قوله تعالى: (قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)[٤].

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[٥].

هذه الصفة هي عربية القرآن الكريم، فقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب بلغة العرب، ليدركوا سره وعظمته، ويعقلوا معانيه، ويعملوا بها. إن الله تعالى أرسل رسوله في أمة تنطق بالعربية لتكون المنطلق الأول للرسالة، فيما تؤمن به من عقيدتها، وتسير عليه من شريعتها، وفيما تحمله من رسالة الدعوة إلى الله في حياتها مع الناس الآخرين. فلا بد أن تملك الوضوح في وعيها للرسالة، وفي فهمها لها، ممّا يفرض أن ينزل القرآن بلسان عربي مبين، وهكذا أنزله قرآناً عربياً؛ ليبني للأمة التي نزل فيها عقلها وفكرها؛ لتعقل ما يريد الله لها أن تعقله من شؤون الحياة العامة والخاصة، وشؤون الدين والعبادة التي تتقرب بها إلى الله[٦].

ومع تعدد آيات السرد الوصفي التي تصف القرآن الكريم، تتعدد صفات الكتاب العزيز، وتتعدد كمالاته. فهو كتاب يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير[٧]، وهو الآيات البينات الواضحات الباهرات[٨]، وهو الذي يقصّ القصص[٩]، وهو أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله[١٠]، وإنّه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والتنزيل المبارك من الحكيم الحميد[١١]، ومن صفاته الكمالية الأخرى أن الله قد يسّره وسهّله[١٢] للناس بالمواعظ والحكم بأسلوب حكيم ودقيق، فهو القرآن الكريم في كتاب مكنون لا يمسه إلاّ المطهرون[١٣]. وفي ذلك إعظام وتقديس لهذا الكتاب المبارك كيف لا، وهو كتاب الله العزيز الذي أنزله على قلب نبيّه الكريم، وجعله خاتمة كتبه السماوية التي أنزلها على العالمين؟.

(١) ينظر: تقريب القرآن إلى الأذهان: محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ ١/ ٣٩.
(٢) ينظر: من وحي القرآن ١/ ٢٥.
(٣) ينظر: الجديد في تفسير القرآن ٣/ ٤٦٣.
(٤) الزمر ٢٨.
(٥) فصلت ٣.
(٦) ينظر: من وحي القرآن ١٢/ ١٧٧.
(٧) ينظر:الإسراء ٩.
(٨) ينظر:الحج ١٦.
(٩) ينظر:النمل ٧٦.
(١٠) ينظر:الزمر ٢٣.
(١١) ينظر:فصلت ٤١ ـ ٤٢.
(١٢) ينظر:القمر ١٧.
(١٣) ينظر:الواقعة ٧٧ ـ ٨٠.

الفصل الثاني

المستوى الصوتي

المبحث الأول: التكرار.

المبحث الثاني: الفاصلة.

المبحث الثالث: الجناس.

المبحث الرابع: التوازي.

توطئة

الايقاع: هو ((اتفاق الأصوات وتوقيعها في الموسيقى))[١]، بمعنى أنّه اتفاق وتدفّق الأصوات في بناء النصوص والعناصر اللغوية وانتظام الجمل المكوّنة لها. فهو يشمل العلاقة بين الجزء والجزء الآخر، وبين الجزء والأجزاء الأخرى كلّها للعمل الأدبي أو الفني، ويكون ذلك في قالب متحرك ومنتظم في الأسلوب الأدبي أو الشكل الفني، وهو بصورة عامة، قاعدة يقوم عليها كل عمل من أعمال الأدب أو الفن.

إنّ كل عمل أدبي فني هو ـ قبل كل شيء ـ سلسلة من الأصوات المتتابعة والمتراكبة مع بعضها، ينبعث عنها المعنى[٢]، وتُسهم هذه الأصوات في إيجاد قواعد للتناسب فيما بينها، وفيما بينها وبين البناء اللغوي التركيبي، ودلالة السياق.

ولعلّ من المهم أن نشير إلى أنّه من البديهي أن يكون البحث عن الصوت ودلالته منطلقاً من معرفة في الحرف اللغوي وما يمثله في الحقل المفهومي من دلالات متعددة، وليست تلك الدلالات التي أوردها ((اللغويون بعامة والمعجميّون بخاصةٍ، سوى علامات بارزة في بيان الارتباط الوثيق الذي يصعُب فصله بين الحرف والصوت؛ لأنّهما يمثلان معاً المبدأ والاتجاه، إذ لا مبدأ من دون اتجاه، ولا اتجاه من دون مبدأ، إنّهما متلازمان...فلا تستبين دلالة أحدهما إلاّ بالآخر، ولا يصحّ لنا الأول ما لم يصحّ لنا الثاني، والعلاقة بينهما علاقة جدلية يعسر الخوض في أحدهما من دون التنبّه إلى حدود الآخر؛ لأنّهما متلابسان، متكاملان يشكّلان معاً دائرة مفهومية واحدة مرتكزها على الأداء وأبعادها المفاهيم))[٣].

يقول ابن جني عن العلاقة بين الحروف والأصوات: ((فإنّ كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرّطْب؛ وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف. وكذلك قالوا: صرّ الجندب، فكرروا الراء؛ لما هناك من استطالة صوته، وقالوا: صرصر البازي، فقطعوه؛ لما هناك من تقطيع صوته، وسموا الغراب غاقٍ حكاية لصوته، والبطّ بطّاً، حكاية لأصواتها))[٤].

إنّ طائفة كبيرة ((من الألفاظ القرآنية تميّزت بدقّتها في التعبير عن دلالاتها إذ يدلّ كلّ لفظ على الصوت نفسه الذي يتجلى منه اللفظ ذاتُهُ، فيمكننا استخراج الصوت من الكلمة، كما تؤخذ الكلمة منه، وهذا ما جعل أصوات الحروف على سَمْت الأحداث التي جاءت صياغتها لتفيدنا بالتعبير عنها))[٥]، ولتحكي لنا الأحداث صوتياً.

والقرآن الكريم يسلك أكثر من مستوى في إيصال الدلالة إلى المتلقي، ومن هذه المستويات، المستوى الصوتي. فالنظم القرآني يعمّق الجانب الصوتي الذي يقوم أساساً على الإيقاع والنغم الصوتي، من خلال التناسق العجيب الذي نشاهده في التجاور والتماثل السياقي للأصوات، مخرجاً وصفةً، وموقعية هذه الأصوات ومؤثراتها في الإيحاء والتصوير، وهذا يسهم في إيجاد قواعد للتناسب بين البناء الصوتي والتركيب ودلالة السياق.

إنّ النظم القرآني، في جملته، مبني صوتياً على الجمال الإيقاعي، وحلاوة النغم الداخلي الذي يتخلل الكلام كلّه، وتنتظم فيه الحروف والكلمات، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها، والفكرة أو الموضوع أو المشهد الذي تعبّر عنه الآيات. ولعلّ هذا الأمر أدى إلى العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة، إلى صياغة خاصة في الكلام، كما أنّ الصوت له أهمية كبيرة في مراعاة المواقف المصوّرة، فاختيار اللفظة أو التركيب يتّسق مع موضوع النص، فقد وُظّفت طبيعة الأصوات لتجسيم المواقف النفسية، والانفعالية، ومواقف الخوف والرهبة، والنعيم والحبور، والأحداث الكونية وأحداث يوم القيامة وغيرها ((وينبغي ألا نغفل أنّ تعبيريّة الحروف هي ظاهرة مرتبطة بالسياق الصوتي في لغة معينة؛ والإيقاع هو الذي يُبرّز تأثير البنية الصوتية بوضعها في قوالب زمنية تمارس من خلالها الإيحاء))[٦].

إنّ الجملة القرآنية لا يكتمل جرسها الصوتي إلاّ بالكلمات والحروف الموزونة، فإذا حُذفتْ كلمة أو تغيّر مكانها، أو تغيّرت

(١) القاموس الجديد، علي بن هادية وبلحسن البليش والجيلاني بن الحاج يحيى، الشركة التونسية للتوزيع ـ المؤسسة الوطنية الجزائرية للكتاب، ١٩٨٨، ١٣٣.

(٢) ينظر: نظرية الأدب، أوستن وارين ورينيه ويليك، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة الدكتور حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، ٢٠٥.

(٣) الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، الدكتور محمد فريد عبد الله، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ١٣.

(٤) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٤، ١٩٩٠، ١/ ٦٦.

(٥) الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، ١٠٤.

(٦) نظرية البنائية في النقد الأدبي، الدكتور صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧، ٤٧٢.

حروفها، فإنّ الجرس يفقد الكثير من تناسقه وإبداعه، وخاصيته في جذب المتلقي. ومثال ذلك قوله تعالى في وصف حال الكفار يوم القيامة: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ × خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ × مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)[١] فقد ذكرت كلمة (الداع) مرتين من دون الياء، ولو كُتبت الياء ولُفظت لاختل النظام الصوتي في السياق القرآني. وهكذا نرى الإيقاع في القرآن الكريم يفرض نفسه على القارئ والمستمع، حتى ولو لم يكونا منتبهين.

المبحث الأول

التكرار

التكرار: ((وهو مصدر كرر إذا ردّدَ وأعاد، هو (تَفْعال) بفتح التاء...وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة، ظنّاً أنّه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها، لاسيما إذا تعلّق بعضه ببعض؛ وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا أبهمت بشيءٍ إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيداً، وكأنّها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء، وإنّما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة. وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد؛ لأنّ الإنسان مجبول على الطبائع المختلفة، وكلّها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلاّ تكرار المواعظ والقوارع))[٢]

والتكرار: هو تواترٌ وإعادةٌ للكلمات والتراكيب والبنى والأساليب والنصوص، يسعى وظيفياً للإيحاء والتوكيد على أمرٍ معين. فحضوره، إذن، حضور بلاغي، ومن هنا نعرف أنّ الأدوات المنهجية، والمنهج الملائم لدراسة هذه الظاهرة الصوتية هو المنهج الأسلوبي. فالأسلوبية تعتمد في أدواتها المنهجية على اللغة، وأدواتها اللسانية (الصوت والصرف والنحو والمعنى) كميزان ومعيار لما هو متميّز ومطّرد ومتواتر من الأشكال اللغوية، بنحو يعكس فنية وبلاغة وقصدية منتج النص.

إنّ المنبهات الأسلوبية، وهي ما يلفت النظر أكثر من غيرها في النص، هي المقوّمات والركائز البلاغية التي تمنح النص فنّيتهُ، ((فالمنبهات كفيلة بإيقاظ وعي المتلقي واستنفاره لدرجة يضحى فيها هذا المتلقي واقعاً تحت سلطة التأثير الناتج عن المنبهات التي تولدها الظاهرة اللغوية، التي تتحول إلى شحن المتلقي شحناً عاطفياً))[٣]. ويمثل التكرار أحد المنبهات الأسلوبية في النص، والتي تمنحه القابلية على إنتاج الإيقاع الصوتي الذي يجذب المتلقي.

يرد التكرار في القرآن الكريم بشكل جلي، ومشخص ومدرك فنياً وبلاغياً وقصدياً، فهو منبه أسلوبي ذو دور وظيفي مهم في بناء النص القرآني، وفي إظهار القيم الصوتية التي ميّزته عن غيره من النصوص. فالتكرار يمنح النص القرآني قيمة أدائية وتعبيرية وفكرية في معاودة الأصوات وتكرارها؛ لأنّ ((القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار لا تفارق القيم الفكرية والشعورية المعبّر عنها))[٤].

يقول غوستاف لوبون: من ((يكرر لفظاً أو فكرة أو صيغة تكراراً متتابعاً يحوّله إلى معتقد، والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التي يكررها، ويسلم بالأفكار التي يعرب عنها))[٥]. ولعلّ هذا الكلام ينطبق على القرآن الكريم، فقد كان هدف هذا الكتاب هداية الناس، وترسيخ إيمانهم بالعقيدة الإسلامية؛ لكي لا يحيدوا عنها، وهذا ما جعل الله تعالى يعتمد في الكثير من آياته على التكرار بأجلى صوره، ومختلف أنواعه؛ لما

(١) القمر ٦ ـ ٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م، ٣/ ٨ ـ ٩.

(٣) التكرار في القرآن الكريم درس بلاغي، سليم الجصّاني، صحيفة كتابات على الانترنيت http.// www.Kitabat.com في ٣/ ٥/ ٢٠٠٨.

(٤) التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ٨٤

(٥) القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة، دار القلم، القاهرة، ط١، ١٩٦٢، ٨٦.

يحمله من جانب إيقاعي كبير، تنصت إليه أذن الإنسان العربي بكل خشوع وجلال، ولفائدته في التأكيد، وتقرير المعنى في النفس، والاقناع، والاستيعاب، والمبالغة في الترغيب والترهيب.

إنّ القوة التعبيرية والدلالية للكلمة المنفردة لا تظهر من معناها فقط، بل من طبيعة تشكّلها الصوتي، إذ إنّ شكلها الصوتي يأخذ صوراً إيقاعية متعددة، تنسجم مع انعكاساتها الدلالية الظاهرة منها، وغير الظاهرة. وإيقاع التكرار يرتبط بالمعنى والمحتوى، فهو بمختلف أنواعه، يُحدث نوعاً خاصاً من الإيقاع تستلزمه العبارة، ممّا يمدّها قوة في الجرس والإيحاء. فالتكرار يمثل صورة جمالية للنص[١]، تعمل على جذب انتباه المتلقي؛ لذلك نجد الله سبحانه في كتابه العزيز يوظف هذه الظاهرة الأسلوبية، ويجعلها منبهاً أسلوبياً يعمل على كسب انتباه المتلقي، قارئاً وسامعاً.

وقد تنبّه العلماء العرب إلى أهمية التكرار وفوائده، إذ يقول السيوطي: ((التكرير وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، خلافاً لبعض من غلط، وله فوائد:

منها التقرير، وقد قيل: إنّ الكلام إذا تكرر تقرر...

ومنها التأكيد.

ومنها زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة؛ ليكمل تلقي الكلام بالقبول. ومنها إذا طال الكلام وخُشيَ تناسي الأول، أعيد ثانيه تطريةً له وتجديداً لعهده ومنه: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)[٢].

ومنها التعظيم والتهويل نحو: (الْحَاقَّةُ × مَا الْحَاقَّةُ)[٣] (الْقَارِعَةُ × مَا الْقَارِعَةُ)[٤].

ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين، فإنّ التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده نحو: (اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ...)[٥].

ومنه ما كان لتعدد المتعلّق، بأن يكون المُكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلّق به الأول. وهذا القسم يسمى بالترديد كقوله: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)(النور/ ٣٥). وقد وقع فيها الترديد أربع مرات))[٦].

((والتكرير قد يكون للتخصيص. مثلاً آية: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) (البقرة/ ٢٤٣)))[٧].

وهكذا نرى الفوائد الكثيرة للتكرار التي أشار إليها السيوطي والزمخشري، إلا أنهما لم يشيرا إلى فائدة التكرار في تحقيق التوازن الصوتي، والإيقاع المنتظم في النص القرآني، ولعل التوازن الصوتي والإيقاع النغمي المنتظم، هو من أهم خصوصيات التكرار وفوائده، التي بَدَت واضحة في النص القرآني، ومن أهم سماته.

ظهر التكرار بشكل جلي في بنى السرد الوصفي القرآني، من خلال نوعين هما:

أولاً: تكرار اللفظة المفردة.

ثانياً: التكرار التركيبي،وهو على نوعين.

أـ تكرار تركيبي تام.

ب ـ تكرار تركيبي ناقص.

أولاً: تكرار اللفظة المفردة

ورد تكرار اللفظة المفردة في الكثير من بنى السرد الوصفي القرآني، وكان لكل تكرار هدفه في سياق النص القرآني. إن هدفنا من هذه الدراسة هو بيان وظيفة التكرار،وغيره من المنبهات الأسلوبية ـ التي سنأتي على دراستها في قابل المباحث والفصول بمشيئة الله تعالى ـ في خدمة السرد الوصفي القرآني وإظهار قصدية مبدع النص القرآني في توظيف هذه المنبهات الأسلوبية المهمة. إن النص القرآني نص خاضع للشروط الإلهية المنتجة له. وتبعاً لهذه الشروط فإن ثمّة ضوابط ومقاصد اتبعها الله تعالى، بشكل دقيق جداً؛ لتحقيق أعلى درجات الإفهامية والفهم عند المتلقي، قارئاً كان أم سامعاً؛ لذلك سوف نولي هذه الجوانب المهمة اهتمامنا وعنايتنا، والتي نراها أكثر أهميةً من الإحصائيات والتعدادات التي شغلت الكثير من الدراسات الأسلوبية، فليس هدف الدراسة الأسلوبية ـ فيما نرى ـ بيان عدد مرات ورود الجناس وأنواعه ـ مثلاً ـ من تام وناقص ومُحرّف ومُصحّف وقلب واشتقاقي في نص ما، إنّما الهدف هو وظيفة هذا الجناس في النص، وبيان مدى فائدته للإيقاع وإظهاره للقيم الصوتية في النص المدروس.

من أمثلة تكرار اللفظة المفردة قوله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[٨].

تنتمي هذه الآية إلى المستوى الأول من مستويات السرد

(١) ينظر: تحولات بنى الخطاب القرآني في مشاهد القيامة والقص دراسة أسلوبية، بلقيس كولي الخفاجي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٥، ١٢٥.

(٢) النحل: ١١٩.

(٣) الحاقة: ١، ٢.

(٤) القارعة: ١، ٢.

(٥) الحشر: ١٨.

(٦) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ج١/ ٣٤١. وينظر: الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٧) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، الدكتور مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر، ط٣، ٢٢٩.

(٨) البقرة: ٧٩.

الوصفي القرآني، وهو مستوى الترغيب والترهيب، ويتم التركيز فيها على ترهيب وتهديد اليهود، الذين حرّفوا التوراة بالعذاب الشديد، من خلال تكرار كلمة (ويل)، التي تدل على الوعيد والعذاب، ثلاث مرات. ولكي يرهبهم الباري ويخوّفهم ويبالغ في ذلك، فإنّه يكررها أكثر من مرة، علّهم يرتدعون عن عملهم الذي يقومون به، وهو التحريف، ثمّ أن تكرار هذه الكلمة بصيغة النكرة يعمّق جو الترهيب والخوف، فلو قال: (الويل) لما حملت ذلك الإيقاع الرهيب والمخيف، كذلك فإنّ من معاني الابتداء بالنكرة الدعاء، ففضلاً عن الترهيب الذي حملته كلمة (ويل) فانها حملت الدعاء عليهم بالعذاب الأليم.

في أكثر آيات السرد الوصفي يتم تكرار لفظ الجلالة أكثر من مرة بدلاً من استعمال الضمير الذي يعود عليه. ومن تلك الآيات قوله تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ × لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ × ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ× ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ× ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[١]

تبدأ الايات بالترغيب، ثم تتحول إلى بيان قدرة الله وآياته في الكون، ولعلّ قارئها يلفته تكرار لفظ الجلالة عشر مرات، ممّا يضفي على الآية جواً ملكوتياً من خلال الانسياب العذب لكلماتها، ومن خلال التكرار المتتابع للفظ الجلالة، الذي أفاد معاني عدّة منها التعظيم لله تعالى، فالقرآن الكريم لا يأتي بالضمير، وإنّما يكرر لفظ الجلالة تعظيماً لشأنه. ومنها أن الآيات الثلاث الأولى ترغب المؤمنين المهاجرين الذين قُتلوا في سبيل الله أو ماتوا، ولاشكّ أنّ المؤمن يتلذذ ويطمئن بذكر الله على لسانه، ولاسيّما أن الله تعالى يقول: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[٢]. ومنها أنّ الآيتين التاليتين للآيات الثلاث الأولى، تسرد وتصف قدرة الله وآياته في الكون؛ لذلك نرى تكرار لفظ الجلالة إمعاناً في بيان قدرة الله وآلائه على عباده.

يصف القرآن الكريم مشهداً من مشاهد يوم القيامة بقوله: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)[٣]، إذ تتكرر كلمة (نفس) ثلاث مرات، وقد أضفى هذا التكرار إيقاعاً جميلاً على الآية، بحيث تمكنت بوساطته أن تشدّ أسماعنا، كما كان لهذا التكرار أثر دلالي في بيان الحالة النفسية للإنسان حينما يقف أمام ربّه للحساب يوم القيامة، فالنفس تبقى بين الخوف والرجاء، حتى تعلم مصيرها المحتوم.

قلنا إنّ تكرار كلمة (نفس) ولّد إيقاعاً متناسقاً في الاية الكريمة؛ والسبب في ذلك طبيعة الحروف التي تكونت منها، فالنون بجهره وانفتاحه ورخاوته، والفاء بهمسه وانفتاحه ورخاوته، والسين بهمسه وانفتاحه ورخاوته وصفيره، كل هذه الصفات مجتمعة صوّرت ذلك الجو الذي امتاز بجدال النفس في البداية، والذي عبّر عنه جهر النون، ثم امتاز بعد ذلك بالهدوء الذي عبّر عنه همس ورخاوة الفاء والسين، حيث يصف الباري الأصوات في ذلك اليوم بقوله: (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً)[٤].

ثانياً: التكرار التركيبي

أ ـ تكرار تركيبي تام

في تتبعنا للآيات التي ورد فيها التكرار التركيبي، بنوعيه التام والناقص، وجدنا أنّ ثمة نوعين من كل منهما، فهناك تكرار تركيبي على مستوى سورة واحدة، إذ تتكرر التراكيب في السورة نفسها، وهناك تكرار تركيبي على مستوى سور متعددة، إذ نجد تراكيب بعينها تتكرر على امتداد سور القرآن الكريم، وممّا لا شكّ فيه أنّ لكل نوع من هذه التكرارات قصديته، وفائدته التي وُجد من أجلها، ونتيجة لذلك فقد تفرّع التكرار التركيبي التام في نوعين:

١ـ تكرار تركيبي تام على مستوى سورة واحدة.

(١) الحج: ٥٨ ـ ٦٢.

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) النحل: ١١١.

(٤) طه: ١٠٨.

ومثاله قوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)[١]. فقد تكرر هذا التركيب أربع مرات في سورة القمر، وثمة تطابق تام بين التراكيب الأربعة، التي كانت تصف القرآن الكريم، وتؤكد من خلال (قد) التوكيدية أن الخالق يَسّر القرآن الكريم للناس كافة، ثمّ يُتبع هذا التوكيد بالاستفهام الإنكاري بحرف الاستفهام (هل)؛ ليحدث صدمةً ومفاجأة عند المتلقي، وكأنَّ الباري يخاطب الناس في هذه الجملة ويحتجّ عليهم، أن يا أيها الناس قد يسّرت لكم تلاوة القرآن والاتعاظ بآياته وقصصه، ولكن مع هذا التيسير، هل هناك من مدّكر ومتعظ؟.

إنّ تكرار هذا التركيب، بعد كل قصة من قصص الأمم الماضية، مدعاة للادكار والاتعاظ، واستئناف للتنبيه من الغفلة؛ لئلا يغرق الناس في السهو والابتعاد عن كتاب الله[٢]، وما فيه من أخبار الأولين والآخرين. إن في هذا التكرار تنبيهاً للناس على الاستفادة من الكنوز التي حواها القرآن الكريم، وحثاً لهم على التدبّر في آياته بعد أنْ يسّرها الله لهم.

في سورة المرسلات يرهب القرآن الكريم المكذبين، بوساطة تكرار قوله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)[٣] عشر مرات، فالسورة المباركة تذكر عدّة أحداث ومشاهد سوف تحدث يوم القيامة، وبما أنّها في مقام وصف أحداث ذلك اليوم، فإنّها تعرج على ذكر ما سيحدث للمكذبين، وما سيصيبهم إمعاناً في ترهيبهم وإخافتهم، علّهم يرتدعون ويتركون الكذب، وغيره من المعاصي التي سوف تؤدي بهم إلى جهنّم. إنّ تكرار هذه الآية عشر مرات أوجد جواً مخيفاً ومرعباً في السورة، فهي تتكرر بعد كل مجموعة من الآيات؛ ليبقى هذا الجو المخيف مسيطراً على السورة بأكملها. كما أنّ طبيعة الآية من حيث أحكام ترتيلها يضفي بعداً إيقاعياً مخيفاً هو الآخر، فطبيعة الغنة في إدغام (ويلٌ يومئذ) التي مقدارها أربع حركات تعليمية، وطبيعة المدّ العارض للسكون في ياء (المكذّبين) التي تُمدّ بمقدار (٢ ـ ٤ ـ ٦) حركات عمّقت هذا الجو المخيف، وعمّقت إحساس السامع به، حينما يستمع إلى هذه الآية وهي تُرتل ترتيلاً صحيحاً، وبهذا تشترك القيم الصوتية مع القيم الدلالية في إظهار جو الترهيب، الذي أرادت السورة أن تظهره بأجلى صورة.

٢ـ تكرار تركيبي تام على مستوى سور متعددة.

كان هذا النوع من التكرار أكثر أنواع التكرار وروداً في نصوص السرد الوصفي القرآني، وقد تمحورت أكثر آياته حول الترغيب والترهيب، وبيان قدرة الله وآياته؛ ولعلّ السبب في ذلك أنّ الكثير من آيات الترغيب والترهيب، وآيات بيان قدرة الله وآياته تنتهي بهذه الآيات المتكررة التي ستكون محور اهتمامنا.

قال تعالى:

(ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٤].

(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٥].

(فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٦].

(لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٧].

يتكرر هذا التركيب عشر مرات، حيث تُختتم به نصوص الترغيب. فبعد أن يرغّب الخالق تعالى عباده المؤمنين، ويذكر الثواب الذي سيحصلون عليه، والنعيم الذي سيقبلون إليه، فإنّه يطمئنهم بأنّهم لا خوفٌ عليهم، ولا على مصيرهم، ولا هم يحزنون؛ لأنّهم سوف لا يجدون ما يخوّفهم ويحزنهم. ويؤكد عاقبتهم الحسنة هذه بوساطة تكرار حرف النفي (لا)، وبوساطة تكرار الضمير (هم)، مبالغةً في تطمينهم بنهايتهم السعيدة التي سيؤولون إليها.

حينما يقرأ الإنسان نصوص الترغيب يحس بالسعادة والشوق العارم لما أعدّه له الله تعالى من نعيم في الجنان، ولكن مع إحساسه هذا، فهو بحاجة إلى الاطمئنان الذي يريح نفسه وعقله. وقد جاءت هذه الآيات المتكررة في أعقاب نصوص الترغيب؛ لتبعث الطمأنينة والارتياح والهدوء في نفس هذا الإنسان، ولتؤكد له حقيقة عاقبته الحسنة التي لا خوف فيها ولا حزن، بل فيها الحياة السرمدية في الجنان، وفيها ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين. وبذلك حقق هذا التكرار هدفه في نصوص الترغيب.

في نصوص الترهيب ثمة تركيب يتكرر أكثر من غيره، وهو قوله تعالى: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٨].

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٩].

(فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[١٠].

مثلما تكرر نص الترغيب السابق عشر مرات، فإنّ نص الترهيب هذا يتكرر عشر مرات أيضاً. فالقرآن الكريم يوازن بين هذه التراكيب المتكررة التامة على مستوى سوره، انطلاقاً من قدرته على التدرّج في تحقيق الإفهام والإقناع؛ مراعاة لطاقة الإنسان على استيعاب مضامينه الكثيرة، كما أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول، وانطلاقاً من مبدأ الثواب والعقاب، فالمؤمن يُبشّر بالترغيب، والكافر يُخوّف بالترهيب، وبالتالي فإنّ الأول ينال

(١) القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.
(٢) ينظر: الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، عبد الله شبّر، مكتبة الالفين، الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ ٦/ ١٢٢.
(٣) المرسلات ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩.
(٤) البقرة: ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧.
(٥) آل عمران: ١٧٠.
(٦) المائدة ٦٩، الأنعام ٤٨، الأحقاف ١٣.
(٧) يونس ٦٢.
(٨) البقرة ٣٩، ٢٥٧، الأعراف ٣٦، يونس ٢٧، المجادلة ١٧.
(٩) البقرة ٢١٧، آل عمران ١١٦، الرعد ٥.
(١٠) البقرة ٨١، ٢٧٥.

ثوابه في الآخرة، والثاني ينال عقابه وعذابه الذي يستحق.

جاء هذا التركيب خاتمة لنصوص الترهيب. فبعد أن يذكر الباري أنواع الذنوب التي يقترفها الكافرون، من كفر وكذب بآيات الله، وأكل للربا والحرام، يختم هذه النصوص بقوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، إمعاناً في ترهيبهم وإخافتهم علّهم يتركون هذه الأعمال الرذيلة، وإلا فإنّ من بقيَ مُصرّاً على كفره، فإنّ جزاءه جهنم خالداً فيها؛ لذلك أطلق عليهم لفظ الأصحاب؛ لاتصالهم بها، وبقائهم وخلودهم فيها[١]. فهم مصاحبون لها أبد الدهر.

تتكرر الكثير من التراكيب في مستوى وصف قدرة الله وآياته في الكون، ولاسيما تلك التي تشير إلى مُلْك الله للسماوات الأرض، وإلى وحدانيته تعالى، وإلى آياته التي يظهرها للمؤمنين العاقلين المتفكرين. ومن التراكيب التي تكررت قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[٢].

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[٣].

إنّ الهدف من تكرار هذا التركيب هو التأكيد على عظمة الخالق وملكه للسماوات السبع والأرضين السبع، ومن فيهنّ، فهو المالك والمسيّر لهذا الكون بأجمعه، وله الملك لا لغيره؛ لأنّه الخالق لهما ولما فيهما من المخلوقات، وهو المتصرّف في جميعها إيجاداً وإعداماً، إبداءً وإعادةً، وقد أفاد تقديم الخبر المتمثل بالجار والمجرور (لله) على المبتدأ (ملك) معنى الاختصاص، فهذا الملك من اختصاص الله، وليس لغيره أن يملكه.

ب ـ تكرار تركيبي ناقص

١ـ تكرار تركيبي ناقص على مستوى سورة واحدة.

ورد هذا النوع من التكرار في عدد من السور، ومن ذلك قوله تعالى:

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[٤].

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[٥].

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[٦].

وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
- الْكَافِرُونَ
- الظَّالِمُونَ
- الْفَاسِقُونَ

لا يخفى على متلقي النص القرآني ما في هذا التكرار من ترهيب ووعيد لمن خالف حُكم الله، ولم يحكم بما أنزله الخالق من دستور إلهي، كما أنّ فيه تأكيد هذا الأمر، فهذه البنى المكررة تؤكد الموضوع، وتُشكّل ضغطاً على المتلقي؛ لكي يفعل ما يأمره به ربّه. وقد اختلفت الصفات التي اختتمت بها الآيات الثلاث، فقد وصفهم القرآن بالكفر تارة، وهو عدم الاقرار بالله أو بدينه، وبالظلم أخرى، وهو إعطاء الحق لغير المستحق، ومنعه عن المستحق، وبالفسق ثالثة، وهو الخروج عن طريق الشرع والعقل؛ لاتصافهم بالأوصاف الثلاثة، وللتشهير بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، ولأنّ الأول بالنسبة إلى أمة محمد (ص)، ولما كانت رسالته وكتابه وأحكامه أشرف، سُمّي المنحرف عنها، والحاكم بغيرها كافراً؛ إشعاراً بأنّ المنحرف عنها أسوأ حالاً من الكل، والثاني بالنسبة إلى اليهود، ولّما كانت الكثرة فيهم غالبة كان الظلم فيهم أظهر، والثالث بالنسبة إلى النصارى، ولّما كانت الوحدة فيهم أظهر كان الخروج عن طريق الوحدة، وهو الفسق أنسب بحالهم[٧].

في بداية سورة الرعد نجد تكراراً تركيبياً ناقصاً يبعث على التأمل، إذ يقول تعالى واصفاً لآياته:

(١) ينظر مقتنيات الدرر ج١/ ١٤٣.
(٢) المائدة ١٧، ١٨، النور ٤٢، الجاثية ٢٧، الفتح ١٤.
(٣) المائدة ١٢٠، الشورى ٤٩.
(٤) المائدة ٤٤.
(٥) المائدة ٤٥.
(٦) المائدة ٤٧.
(٧) ينظر: بيان السعادة ج٢/ ٨٨.

إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ ← يَتَفَكَّرُونَ / يَعْقِلُونَ

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[١].
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢].

يتكرر التركيب بأكمله، باستثناء الفاصلة، إذ كانت الأولى (يتفكرون)، والثانية (يعقلون)؛ لأنّ الآية الأولى كانت في مقام تعداد آيات الله، إذ يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ)، وهذا النوع من القدرة الإلهية بحاجة إلى التفكّر والتدبّر من الإنسان، فليس مدّ الأرض، وشقّ الأنهار، وغرس الثمرات، وتعاقب الليل والنهار ممّا يحدث صدفة، بل يحدث بفعل قادر حكيم، وكل هذه الآيات تحتاج إلى التفكّر فيها، وفي قدرة خالقها. أمّا الآية الثانية فقد كانت تركز على تفضيل بعض الثمار على بعضها في الطعم، على الرغم من أنّها تنبت في أراضٍ متجاورة، وتُسقى بماء واحد: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ). إنّ هذا التفضيل لبعض النباتات على بعضها في الأكل، على الرغم من تشابه المقدّمات، فيه آيات وأدلة على قدرة الله بحاجة إلى أن يعقلها الإنسان. فقد يقول قائل: كيف يُعقل أن يختلف طعم النبات فتكون بعض ثماره حلوة، وبعضها حامضة، مع اتحاد مقدماتها من أرض وماء وأحوال جوية؟ والجواب: إنّ الذي يجعل الانسان يعقل هذا الأمر هو قدرة الله تعالى وآياته في تسيير هذا الكون. فعلى الانسان أن يعقل هذه الآيات، ويؤمن بأن ليس ثمة ما هو خارج عن قدرته تعالى.

إنّ طبيعة أحكام ترتيل الآيتين، علاوة على التكرار الذي ورد فيهما، أعطاهما بعداً صوتياً رائعاً يمارس تأثيره وضغطه على المتلقي؛ ليعمّق من تدبّره وتفكّره واستكناهه لآيات الله، إذ إنّ حرف النون المشدد في (إنّ) يتم التوقف عليه على مدى أربع حركات تعليمية، والغُنّة التي يحدثها إدغام تنوين الميم في (لقوم) مع (ياء) (يتفكرون) و(يعقلون)، والذي يُغنَّ بمقدار أربع حركاتٍ، فضلاً عن مدّ الواو العارض للسكون في (يتفكرون) و(يعقلون)، كل هذه التوقفات في ترتيل الآيتين تحث المستمع على التدبر والتعمق في آياته تعالى.

(١) الرعد: ٣.
(٢) الرعد: ٤.

٢ـ تكرار تركيبي ناقص على مستوى سور متعددة

كانت آيات السرد الوصفي القرآني التي ظهر فيها هذا النوع من التكرار أكثر من سابقتها؛ لأنّ هذا النوع ظهر على امتداد سور القرآن فيما ظهر سابقه على مستوى سورة محدودة. وعلى العموم فإنّ الآيات التي ظهر فيها التكرار التركيبي الناقص على مستوى سور متعددة قد تمحورت أكثرها على وصف قدرة الله وآياته في الكون. يقول تعالى:
(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)[٣].
(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)[٤].

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ← الْحَيُّ الْقَيُّومُ / لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

توحّد الآيتان الخالق تعالى بالإشارة إلى أنّ لا إله إلا هو وحده لا شريك له ولا عديل، وتُختم الأولى بـ(الحي القيوم)؛ لأنّ المراد منها ((بيان قيامه تعالى أتمّ القيام على أمر الإيجاد والتدبّر. فنظام الموجودات بأعيانها وآثارها تحت قيمومة الله، ولا مجرد قيمومة التأثير كالقيمومة في الأسباب الطبيعية الفاقدة للشعور، بل قيمومة حياة تستلزم العلم والقدرة. فالعلم الإلهي نافذ فيها لا يخفى عليه شيء منها، والقدرة مهيمنة عليها لا يقع منها إلاّ ما شاء وقوعه وأذن فيه))[٥]، كما تشير (الحي القيوم) إلى أنّ الخالق حي على تعاقب الأزمان والدهور ولا تأخذه إغفاءة ولا نوم، فهو قائم على أمور هذا الكون بأجمعه.

ختمت الآية الثانية بقوله: (له الأسماء الحسنى) تعقيباً على ما سبقها من آيات من قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى × لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)[٦]. فالآيات في معرض ذكر صفات الله تعالى، ومن صفاته أنّ له الأسماء الحسنى بكل دلالاتها من صفات الكمال والجلال في الآفاق المطلقة في كماله وجلاله، فيما يمثّله التصوّر الصحيح للعقيدة الإلهية التوحيدية، التي توحي بالتفرّد المطلق بالربوبية في كل شؤونها بعيداً عن مماثلة المخلوقين في أي شيء من صفاتهم وأوضاعهم. وهكذا هو الأسلوب القرآني الذي يحرك الايمان بالله في كلّ موقع من المواقع التي يمكن أن يطل منها الإنسان على خالقه،

(٣) البقرة ٢٥٥، آل عمران ٢.
(٤) طه ٨.
(٥) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الاسلامية، طهران، ط٣، ١٣٩٧هـ ج٣/ ٣.
(٦) طه: ٥ ـ ٦.

فالأسماء الحسنى مختصة به، كما اختصت الألوهية به وحده، وهذا ما أرادت الآية الكريمة الإشارة إليه، والله أعلم[١].

في سورتي الجمعة والتغابن ثمة تكرار تركيبي ناقص يرد في مفتتح السورتين. قال تعال:
(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)[٢].
(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٣].

إنّ السورتين تفتتحان بنفس التركيب، وهو أنّ الله تعالى يسبحه ما في السماوات وما في الأرض؛ وذلك لأنّ الآيات التي جاءت بعد هاتين الآيتين في كلا السورتين، في مقام تعداد آيات الله ونعمه على العباد، ولكي يقدّر العباد هذه النعم الكثيرة، فإنّ عليهم شكر الخالق، والتسبيح له، وذكر آلائه عليهم.

قلنا إنّ السورتين افتتحتا بنفس التركيب، إلا أنّ الآية الأولى خُتمت بقوله تعالى: (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وفي هذه الصفات الأربع الكثير من المعاني، فالأولى تختص بالحكم في نظام المجتمع البشري، وفي نظام التكوين، ومن ألطاف الملك الخالق على عباده أن يبعث فيهم رسولاً منهم؛ ليعلمهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم، والصفة الثانية تبالغ في نزاهة الخالق الحاكم وطهارته عن كل نقص وعيب، فليس هذا الملك كملوك الدنيا غارق في الذنوب وظلم الناس، إنما هو ملك قدوس عادل. وتشير الصفة الثالثة إلى قوة الحاكم ونفاذ أمره. أمّا الرابعة فإنّها تنبه على أنّ هذا الملك الغالب لا يغفل عن جهل ولا يحكم جزافاً. ونتيجة لذلك فإنّ نظام التكوين والتشريع بحاجة ماسة إلى هذا الحاكم، ليحكم في أهل مملكته، وعليهم أن يسبّحوا له، كلّ بحسبه.

خُتمت آية التغابن بقوله تعالى: (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ لأنّ الآيات التالية لهذه الآية تعدد نعم الله الخالق الملك على عباده فمن خصائصه، أنّ له الملك وحده، ومن صفات ملكه أنّه ينعم على عباده وأهل مملكته بالكثير من النعم التي صوّرتها الآيات الكريمة، وبالتالي فإنّ هذه النعم بحاجة إلى الحمد والشكر له تعالى من عباده؛ ولذلك جاء بقوله (له الحمد)؛ لكثرة نعمه على العباد. إنّ نعم الخالق المذكورة في هذه السورة، وفي غيرها، تدل على مطلق القدرة الإلهية اللامحدودة، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره.

(١) ينظر: من وحي القرآن ج١٥/ ٩٧.
(٢) الجمعة: ١.
(٣) التغابن: ١

المبحث الثاني

الفاصلة

تمثل الفواصل وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ((فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة))[٤]، ويرى الزركشي أنّها ((كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع))[٥]. ((وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام وتسمّى فواصل؛ لأنّه ينفصل عندها الكلامان؛ وذلك أنّ آخر الآية فَصَل بينها وبين ما بعدها، ولم يسمّوها أسجاعاً))[٦].

إنّ الفاصلة ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة المعالم، انفرد بها القرآن عن النثر والشعر معاً، وهي من أبرز الخصائص التي جعلته نحواً جديداً من أنحاء البيان، وطريقاً فريداً من طرق التعبير. وقيمة الفاصلة في بلاغة النظم القرآني وجمال إيقاعه حقيقة لا تقبل المراء، وما كان للقرآن الكريم أن يحافظ عليها ويختارها بعناية فيأتي بها متمكنة في موضعها مستقرة في نفسها لو لم يكن لها شأن كبير في بلاغته وتحقيق مقاصده.

من خصوصيات الفاصلة القرآنية أنّها تأتي في النص القرآني، وهي تحمل شحنتين في وقت واحد، شحنة صوتية إيقاعية تحمل جانباً موسيقياً للنص، وشحنة معنوية تحمل جانباً دلالياً. وتتجلى الشحنة الصوتية في تكرار حروف الفواصل، ولاسيما حروف

(٤) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط ٤، ٢٧٠.
(٥) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٥٣، وينظر: الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٢٣١.
(٦) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٥٤.

النون والميم والألف والواو والياء، فالحرفان الأولان من الحروف التي تحمل غنّة جميلة تساعد على إخراج صوت محبّب من الأنف، والثلاثة الأخرى تستعمل في المدود، وتقابل تسمية الإطلاق في البيت الشعري. أمّا شحنة المعنى فتتجلى عند إنعام النظر في الآية، وفاصلتها وما حملت من أفكار تنسجم مع ما سبقها من كلام، وبالتالي تكون الفاصلة منسجمة كل الانسجام مع معنى الآية السابقة لها[١].

للفواصل دورها المهم في إعطاء الآي جرساً موسيقياً مناسباً؛ لذا عني القرآن بتوافقها في كثير من السور والآيات، وكان القرآن يعطي هذه الظاهرة الأسلوبية حقّها من الأداء والتأثير دون أن يحيف على المعنى[٢]، فهو ((لا يُعنى بالفاصلة على حساب المعنى، ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مُراعى فيها المعنى والسياق والجرس ومُراعى فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعى فيها إلى جانب ذلك كلّه عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنّه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها، أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه وجمع بين كل ذلك ونسّقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال))[٣].

وللفاصلة القرآنية أثر واضح في جذب انتباه المتلقي، إذ تجعل أذنه لا تمل سماع آيات القرآن؛ وذلك بسبب جرس الأصوات المنبعث من تتابعها، وإيقاعها المميّز، إلى جانب تشكيلها المقطعي، وبسبب معانيها، مما يضفي جانباً دلالياً متنوعاً على نهايات الآي.

إنّ القرآن الكريم يتخيّر الأسلوب المناسب للفكرة، وينوّع في نظام الفواصل، بتنوّع الموضوع الذي يعرضه، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها، وطريقة بنائها الصوتي واللفظي، وارتكازها على الحرف الأخير الذي تُختم به. وجملة القول في الفاصلة أنّها تأتي تنشيطاً للقارئ والسامع، وللملاءمة والاتساق في الإيقاع، ولمراعاة المعنى وتقريره.

كانت الفاصلة الثلاثية المقطع هي الأكثر وروداً في مستويات السرد الوصفي القرآني، ثم تلتها الفاصلة الثنائية المقطع، فيما قلّ وجود الفاصلة الرباعية، وندر وجود الفاصلة الخماسية والسداسية المقطع، ولعل كثرة ورود الفاصلة الثلاثية يرجع إلى طبيعة بنى السرد الوصفي القرآني التي تصف المؤمنين والكافرين من خلال الترغيب والترهيب، وقدرة الله وآياته، وتصف مشاهد القيامة، وأحوال الناس، وتتحدث عن كل ذلك بضمير الغائب. هذا الأمر جعل الفاصلة تأتي في الغالب ثلاثية المقطع عبر كلمات مثل: خالدون، غافلين، يظلمون، يفعلون، يبصرون، يفترون، يعقلون، يؤمنون، يعلمون، يعملون، يسمعون، خاشعون، معرضون، مشفقون، يشركون، يشعرون، نذيراً، تقديراً سعيراً، زفيراً، ثبورا، يوقنون، يعمهون، خامدون، يرجعون، محضرون، يأكلون، يشكرون، هلوعاً، جزوعاً، منوعاً، كما أنّ الخطاب القرآني على كثرة سوره واختلافها طولاً وقصراً، وتعدد موضوعاتها، كان أكثر ما يستعمل الكلمات الثلاثية من الأفعال والأسماء مجردة ومزيدة.[٤]

وقبل الخوض في غمار الفواصل وأنواعها، من حيث عدد المقاطع التي تتكون منها، نرى من المفيد أن نمهّد ببعض المعلومات عن المقاطع الصوتية، فالمقطع الصوتي ((مصطلح أساسي في علم الأصوات التشكيلي Phnology، فهو الوحدة الأساسية للكلمة، ويستعمل كجزء من مستوى التحليل الفونولوجي، ويشير إلى مجموعة من التتابعات المختلفة من الصوامت والصوائت مع ملامح أخرى مثل النبر والطول، تهتم بها اللغات كمجموعة موحدة للتحليل))[٥].

أمّا المقطع الصوتي في عرف علم الأصوات الفوناتيكي Phoneics، فهو ((أصغر وحدة صوتية يمكن أن تنفصل في تركيب الكلمة. فالكلمات تختلف من حيث عدد المقاطع التي تتكون منها الكلمة، فهناك من الكلمات ما يتكون من مقطع واحد Monosyliabic، وهناك كلمات ثنائية المقاطع disyllabic وأخرى ثلاثية المقاطع trisyllabic، وهناك كلمات تشتمل على أكثر من ثلاثة مقاطع))[٦].

هناك أنواع من المقاطع في اللغة العربية هي:

((١ـ المقطع القصير: يتكون من صوت صامت + حركة قصيرة (o ـ). مثل المقاطع الثلاثة التي تكوّن كلمة (شَكَرَ) وهي: شَ، كَ، رَ. والمقطع القصير يكون مفتوحاً دائماً.

٢ـ مقطع متوسط مفتوح: يتكوّن من صوت صامت + حركة طويلة (o ـ ـ) مثل لا، في، ذو.

٣ـ مقطع متوسط مغلق: يتكون من صوت صامت + حركة قصيرة + صامت (o ـ o) مثل الكلمات مَنْ، كَمْ، لَمْ.

٤ـ مقطع طويل مفتوح: ويتكون من صوت صامت + حركة طويلة + صامت (o ـ ـo) في مثل الكلمات عام، فان، دار في

(١) ينظر: التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، القاهرة، ط١ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) ينظر: بحث: الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، مجلة آداب الرافدين، العدد التاسع، أيلول ١٩٨٧، ٣٥١.

(٣) التعبير القرآني، الدكتور فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ١٩٨٩م، ٢١١

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ـ صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٣، ١٣.

(٥) علم اللغة بين التراث والمعاصرة، الدكتور عاطف مدكور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٧، ١٢٧.

(٦) علم اللغة بين التراث والمعاصرة، ١٢٨.

حالة الوقف، أي بسكون الآخر

٥ـ مقطع طويل مغلق: ويتكون من صوت صامت + حركة قصيرة + صامت + صامت (o ـ oo) مثل الكلمات بِنْت، بَحْر في الوقف))[١].

١ـ الفاصلة الثنائية المقطع

ظهرت الفاصلة الثنائية المقطع في عدد من آيات السرد الوصفي القرآني. يقول تعالى:

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً × وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً × لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً × وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً × لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً × تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً)[٢]

صوّرت هذه الآيات مشهداً من مشاهد القيامة، أفاد الترغيب والترهيب، وكانت الفاصلة الثنائية حاضرة في خمس آيات، فيما كانت الفاصلة الثلاثية ظاهرة في آية واحدة وتحديداً في كلمة (وَلَداً).

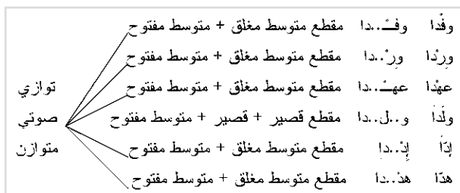

إنّ إنعام النظر في هذه الفواصل الثنائية المتوازية، يرينا أن ثمّة تماثلاً تاماً في الوزن والقافية، وفي التشكيل المقطعي، ممّا حقّق تناسقاً صوتياً على مستوى عالٍ من الدقة، والتأثير في المتلقي. كما أنّ طبيعة حرف الدال من حيث جهره وشدته وقلقلته، وحرف الألف الذي شكّل حرف الروي، من حيث جهره وشدته أيضاً، وتكرارهما في نهاية الفواصل، فضلاً عن تشديد الدال، حقّق شدّةً، وجهراً حين الوقوف على كل فاصلة، وبالتالي خلق إيقاعاً يناسب يوم القيامة وشدّة أهواله. وأدى إطلاق الألف في نهاية الفاصلة نوعاً من إطلاق الصوت عند التلاوة يناسب جوّ الآيات، وطبيعة موضوعها الذي تتحدث عنه، وطبيعة أجوائها التي تصوّر يوم القيامة خير تصوير. فقد جسّد إيقاع الألف المطلقة الحدث صوتياً من الناحية النفسية.

حقّقت هذه الفواصل الكثير من الدلالات، التي تنوّعت إيحاءاتها ومعانيها، كما صوّرت عدداً من مشاهد القيامة. ومن خلال تأملها واحدة تلو الأخرى سوف نرى دقة الدلالة وروعة التصوير، فالفاصلة الأولى تصوّر حال المتقين يوم القيامة، وتبيّن مدى الاحترام الذي سيلقونه، فهم يفدون إلى الرحمن وفداً، ومن معاني الوفد ((هو جماعة مختارة للتقدّم في لقاء ذي شأن))[٣]، فهم أناس ذوو شأن؛ لأنّهم اتقوا ربّهم، كما أنّ هناك تناسقاً دلالياً بين الفعل (نحشر) وهذه الفاصلة، التي صوّرت حال المتقين يوم القيامة.

تصف الفاصلة الثانية المجرمين، ومصيرهم الذي سيؤولون إليه، فهم يساقون مجموعة مجموعة، وقوماً قوماً إلى جهنّم عطاشى كالإبل التي ترد عطاشى، مشاة على أرجلهم، وقد حقق الفعل (نسوق) مع الفاصلة كثيراً من الازدراء والتوهين لشأن هؤلاء الكفار الذين لا يملكون الشفاعة ولا يقدرون عليها وإنما من يقدر عليها هو من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو الإيمان والإقرار بوحدانية الله، وتصديق أنبيائه، وقيل هو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وهذا ما حققته الفاصلة (عهداً). أمّا الفاصلة (إدّاً) فقد دلّت على عِظَم الفعل الذي جاء به مشركو اليهود والنصارى والعرب وشناعته، وهو نسبتهم الولد إلى الله تعالى، فهي تضفي جواً من التهديد والترهيب لهؤلاء الكفار، كما أنّها تصوّر قباحة ذنبهم الذي تكاد السماوات يتفطّرن ويتشقّقْنَ بسببه، وتكاد الأرض تنشق، والجبال تسقط وتنكسر كسراً شديداً، وتهدم هدماً، وقد صوّرت الفاصلة (هدّاً) هذا التفطّر والتشقّق والتكسّر تصويراً دقيقاً بيّن عِظم الذنب الذي اقترفه هؤلاء المجرمون[٤].

من الفواصل الثنائية التي أفادت وصف يوم القيامة، والترهيب

(١) المصدر السابق ١٢٩.

(٢) مريم ٨٥ ـ ٩٠.

(٣) القاموس الجديد ١٣٣٧.

(٤) ينظر: مجمع البيان ٣/ ٥٣٠.

وبيان قدرة الله قوله تعالى:

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ × إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ × يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ × إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[١]

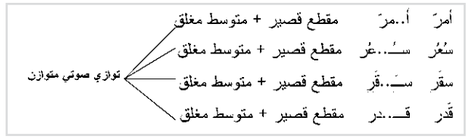

اتسمت هذه الفواصل بالتوازي، إذ اتفقت في الوزن وحرف الروي، فحققت إيقاعاً متوازياً، وتنغيماً متردداً. وقد اشتملت الفاصلة الأولى (أمرَّ) على صوت الهمزة المجهور الشديد، وصوت الميم المجهور المنفتح، وصوت الراء المتكرر المستعلي المجهور. إن اجتماع هذه الأصوات فيه دلالة على شدة مرارة يوم القيامة، وتكرار هذه المرارة كلّما تجدد العذاب على الكافرين، ممّا حسّسنا بها وبطعمها على ألسنتنا حينما نقرأ الآية. ومن اجتماع أصوات السين المتميّز بهمسه وصفيره وانفتاحه، والعين المهموس المنفتح، والراء المتكرر المجهور المنفتح، نرى انفتاح السعير على الكافرين، ونسمع أنينهم الذي دلّ عليه همس السين والعين، ونسمع صراخهم وارتفاع أصواتهم الذي حكاه صفير السين وجهر الراء. ودلّ اجتماع السين والقاف المجهور الشديد المقْلَقَل والراء، على شدّة مسّ سقر، وشدة عذابها المتكرر إلى أبد الدهر. وهكذا نرى صفات الحروف، وطبيعة أصواتها تسهم في إظهار صفات العذاب وطبيعته في نار جهنّم.

أدى اختلاف الفواصل في المعاني إلى تنوّع الدلالات، فبعد الإيقاع الذي حققته، فإنّها تحقق الكثير من الدلالات التي ناسبت أجواء يوم القيامة، والترهيب فكانت الفاصلة الأولى تشير إلى أنّ عذاب القيامة أشد مرارة من عذاب الدنيا، ومن القتل والأسر الذي تعرّض إليه المشركون في معركة بدر، وأنّ هذا القتل والأسر لا يخلصهم من مرارة عذاب ذلك اليوم المشهود[٢]. وتعمّق الفاصلة الثانية جوّ الترهيب، وتضيف صفة أخرى من صفات العذاب، فهؤلاء المجرمون في عذاب وعناء جرّاء دخولهم في عذاب جهنّم وسعيرها الذي لا يُبقي شيئاً إلاّ أحرقه. وتأتي الفاصلة الثالثة لتصف نوعاً آخر من العذاب، وهو بأن يُسحب الكفار على وجوههم، فبمجرد مسّها لأجسامهم فإنّها تحرقهم أشدّ الحرق، وفي ذلك إشارة إلى شدّة عذاب جهنم على المجرمين.

(١) القمر ٤٦ ـ ٤٩.
(٢) ينظر: مجمع البيان ٥/ ١٩٣.

بعد جو الترهيب الذي أحدثته الفواصل الثلاث الآنفة الذكر، فإنّ الفاصلة الرابعة تخرجنا من هذا الجو، لتدخلنا إلى بيان قدرة الله في خلقه الخلق، فقد خلق سبحانه كلّ شيء مقدراً بمقدار توجبه الحكمة الإلهية، فلم يخلقه جزافاً؛ لذلك فهو يخلق العذاب على قدر الاستحقاق، والنعيم على قدر الثواب، وكذلك يخلق كلّ شيء في الدنيا والآخرة بمقدار معلوم ومقدّر لا يزيد ولا ينقص. وفي ذلك دلالة على حكمة الخالق ودقّته في تسيير هذا الكون بأرضه وسماواته.

هناك نوع آخر من الفاصلة الثنائية المقطع نسميه فاصلة المعادلة بطريقة الإشباع، ومثالها قوله تعالى:

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ×وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ× إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)[٣]

كَفور كـَـ.فور مقطع قصير + طويل مفتوح

فَخور فـَـ.خور مقطع قصير + طويل مفتوح توازي صوتي متوازن

كَبير كـَـ.بير مقطع قصير + طويل مفتوح

تكمن قوة الإعجاز في هذه الفاصلة من خلال الحرف الأول المفتوح وصوته، مشبعاً بثلاثة أصوات، إذ شكّل الحرف الأول مقطعاً قصيراً، وشكّلت الحروف الثلاثة مقطعاً طويلاً في قباله، وقد خلق التوازي الصوتي على مستوى الوزن وحرف الروي إيقاعاً موحداً، وحقق ارتكاز الفاصلة على صوت الراء المتميّز باستعلائه وتكراره وجهره وانحرافه إيحاءً في نفس المتلقي إلى طبيعة الإنسان المستعلية عن الحق، المنحرفة عن جادة الصواب، فإذا سُلب النعمة التي أنعمها الله عليه أصبح في حالة من اليأس وكفران النعمة، وإذا ذاق النعمة بعد ضراء وبلاء أصابه أصبحَ فرحاً بالنعمة التي أصابته، فخوراً مستعلياً بها على الاخرين، فهذا الانسان لا يصبر على المحنة، ولا يشكر عند النعمة، وهذه هي صفته التي تبقى مُتكررة فيه جيلاً بعد جيل.

أفادت الفاصلة الثالثة معنى الترغيب، إذ استثنت الآية الذين صبروا وعملوا الصالحات من حالة كفران النعمة والفخر على الآخرين، وكان لارتكازها على حرف الراء دلالة على عِظم الأجر ومضاعفة حسنات المؤمنين، مع تكرار أعمالهم الصالحة والمواظبة عليها، فضلاً عن علوّ شأنهم في الدنيا والآخرة.

لقد حقق صوت الراء، الذي خُتمت به الفواصل الثلاث إيحاءً خاصاً إلى المتلقي، ودلّ دلالة واضحة على صفات الإنسان التي تميّز بها، وعلو شأن المؤمنين من الناس. فإنّ للحروف ((في اللغة

(٣) هود ٩ ـ ١١.

العربية إيحاءً خاصاً، فهو إن لم يدل دلالة قاطعة على المعنى يدل دلالة اتجاهٍ وإيحاءٍ يثير في النفس جواً يهيء لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحي به))[١].

لقد كان صوت الفواصل موحداً، إلا أنّ الصورة التي صوّرتها كل فاصلة منها كانت مختلفة عن سابقتها، فالفاصلة الأولى تصوّر الإنسان وهو في حالة من اليأس وكفران النعمة، في حالة سلبها منه، وتصوّر الفاصلة الثانية الإنسان نفسه وهو في حالة الزهو والفرح والفخر بما أنعم الله عليه، وقد كان من واجبه أن يشكر ربّه على هذه النعم التي أنعمها عليه بدل أن يفخر بها على الآخرين. إنّ الملاحظ على هاتين الصورتين هو أن إحداهما تخالف الأخرى وتعاكسها، وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية الفاصلة في تعدد الدلالة واختلاف الصور. أمّا الفاصلة الثالثة فقد تجلى بوساطتها ذلك الأجر الكبير والعظيم الذي سيحصل عليه أولئك الذين صبروا وعملوا الصالحات، ولم يكفروا بنعمة الله، ولم يفخروا بها على الناس فقد كان القصد منها ترغيب هؤلاء المؤمنين الصابرين بما أعدّ الله لهم من أجر كبير.

٢ـ الفاصلة الثلاثية المقطع.

قلنا فيما سبق: إنّ الفاصلة الثلاثية المقطع، هي الفاصلة الأكثر حضوراً في مستويات السرد الوصفي القرآني، فقد منحتها قيماً إيقاعية وصوتية كثيرة، وطاقة إيحائية كبيرة، وتنوعاً في الصور والمشاهد الموصوفة.

من الفواصل الثلاثية التي أفادت الترغيب، ووصفت المؤمنين تلك التي تجلّت في قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ × وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ × وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ × وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ × أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ × وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)[٢]

مُشفقون مُشـْـ.فِـ.قون متوسط مغلق + قصير + طويل مفتوح.

يُؤْمِنون يُؤْ..مِـ.نون متوسط مغلق + قصير + طويل مفتوح.

يُشْرِكون يُشـْـ.رِ..كون متوسط مغلق + قصير + طويل مفتوح.

راجِعون رَا..جِـ.عون متوسط مفتوح + قصير + طويل مفتوح.

سَابِقون سَاْ..بِـ.قُون متوسط مفتوح + قصير + طويل مفتوح.

يُظْلمون يُظ..لَـ.مون متوسط مغلق + قصير + طويل مفتوح.

تميّزت هذه الفواصل بتطابقها المقطعي، وتوازيها الصوتي على مستوى حرف الروي والحرف الذي سبقه، ويعد هذا التماثل الصوتي منبهاً أسلوبياً يأخذ بلبّ المتلقي وسمعه، ويُحقّق له النغم المتكرر الذي تتلهف الأذن لسماعه. وكان لمدّ الواو العارض للسكون الذي يُمدّ بمقدار (٢ ـ ٤ ـ ٦) حركات دوره في مدّ الصوت حين الوقوف على هذه الفواصل، إذ أفاد المدّ في تثبيت صفات هؤلاء المؤمنين، والتأكيد عليها، وجذب انتباه السامع إليها.

حققت هذه الفواصل ترابطاً عمودياً بين الآيات التي ارتبطت بعضها ببعض ترابطاً أفقياً، فللفاصلة دورها المهم في ترابط البنى والتراكيب والآيات ترابطاً عمودياً، مما يحقّق التداخل التام بين آيات القرآن الكريم، وممّا يحكم نسيج العبارات. وقد تحقق هذا الترابط العمودي عن طريق التوازي الصوتي، والإيقاع المتماثل.

إنّ إيقاع الفواصل في هذه الآيات، وتوازيها الصوتي، ومقاطعها المتشابهة، وتنوعها الدلالي أدى إلى إنتاج دلالة مضافة، وصور بلاغية متجددة تقوم على أسس نفسية، من خلال التدرج في صفات المؤمنين، واستكناه دواخل نفسياتهم المؤمنة، فنراهم بوساطة الوصف الدقيق وكأنّهم ماثلون أمامنا وقد تجسّد خوف الله تعالى والإيمان به على وجوههم التي وُسمت بسيماء الإيمان والصلاح والخشوع، فقد بيّنت الفواصل خوفهم من عذاب ربّهم، فهم يفعلون ما أمرهم به ويتركون ما نهاهم عنه، ويؤمنون ويصدّقون بآياته وحججه، ولا يُشركون بعبادته غيره من الأصنام والأوثان؛ لأنّ

(١) خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، محمد محمد المبارك، مطبعة النهضة، مصر، ١٩٦٠، ٢٤

(٢) المؤمنون ٥٧ ـ ٦٢.

خصال الإيمان لا تتم إلا بترك الشرك، ويوقنون بأنّهم يرجعون إلى الله تعالى. إنّ من جمعوا هذه الصفات الإيمانية، وكملت فيهم هم الذين يبادرون إلى الخيرات والطاعات، ويسابقون إليها رغبةً منهم فيها، وعلماً منهم بما ينالون بها من حسن الجزاء، وهم لأجل تلك الخيرات سابقون إلى الجنة، وسابقون غيرهم إلى الخيرات. يقول ابن عباس: يسابقون فيها أمثالهم من أهل البرّ والتقوى.[1]

ظهرت الفاصلة الثلاثية بأبهى صورها في مطلع سورة الإنسان. إذ يقول تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً × إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً × إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ×إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلا وَأَغْلالاً وَسَعِيراً × إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً × عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً)[2]

مَذْكوراً مَـذْ..كـو..را متوسط مغلق + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح

بَصيراً بَـ.صيـ..را قصـيـر + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح

كَفوراً كَـ.فـو..را قصـيـر + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح

سَعيرا سَـ.عيـ..را قصـيـر + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح

كافُورا كـا..فـو..را متوسط مفتوح + متوسط مفتوح + متوسط مفتوح

تَفْجيرا تَفْـ.جيـ..را متوسط مغلق + متوسط مفتوح + متوسط مفتـوح

تجلى في هذه الفواصل ثلاثة من مستويات السرد الوصفي القرآني. فقد وصفت الفاصلة الأولى حال الإنسان، ووصفت الثانية والثالثة قدرة الله في خلقه وهدايته هذا الإنسان، وقامت الفاصلة الرابعة بترهيب الكافرين، فيما قامت الخامسة والسادسة بترغيب الأبرار. وفي ذلك دلالة واضحة على أهمية الفاصلة في تعدد الدلالات وتنوع الصور.

تميّزت هذه الفواصل بانتهائها بالمقطع المتوسط المفتوح (را) الذي يتكوّن من حرف الراء المستعلي المجهور المتكرر، الذي يشير إلى صفة الاستعلاء على الآخرين عند الانسان، فبعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، فإذا هو سميع بصير يكفر بنعمة ربّه، وقلّما يشكره على آلائه. قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[3]، أمّا حرف الألف المجهور الشديد، الذي تكمن قيمته الصوتية في استطالته وامتداده إلى الأعلى، فهو يحكي العلو والارتفاع والاطلاق عند النطق ومدّ الصوت به، فهو الآخر يشير إلى صفة الاستعلاء عند الانسان، وبهذا يشترك حرف الروي والحرف الذي سبقه من خلال قيمتيهما الصوتيتين في بيان صفتي الاستعلاء والفخر عند الانسان.

حقق صوت الراء بتكراره، وصوت الألف بشدّته من خلال الفاصلة (سعيراً)، التي كان القصد منها ترهيب الكافرين، قيمة صوتية دلّت على استمرار العذاب وتكراره وشدّته في سعير جهنّم. فقد حكى صوت الراء تكرار العذاب واستمراره، وحكى صوت ألف الإطلاق شدة العذاب وصراخ المعذبين في السعير.

وعلاوة على القيمة الصوتية التي توافرت عليها هذه الفواصل، فإنّ هناك قيمة دلالية تجلّت فيها، فهي تصف الإنسان بأنّه لم يكن شيئاً مذكورا على وجه التقرير والتقريب، أي كان شيئاً في علم الله، ولم يُذكر فيما بين الناس؛ لكونه في عالم الغيب، وعدم شعور من في عالم الشهادة به، ثم هداه الله إلى سبيل الحق بأدلة العقل والسمع، في حالة كونه شاكراً مهتدياً، وفي حالة كونه كفوراً محتجباً بالنعم عن المنعم[4].

تضفي الفاصلة (سعيراً) جواً من الترهيب المخيف، الذي صوّر عذاب جهنّم المؤلم بوساطة السلاسل والأغلال والسعير، حتّى كأنّ أحدنا يحس شدّته، ويتخيّل صورته أمام ناظريه، ويتخيّل صورة السلاسل والأغلال وهي تتدلى أمام عينيه، وصورة جهنم وهي تستعر. أمّا الفاصلتان (كافوراً) و(تفجيراً) فقد كان هدفهما الترغيب، إذ تجلّت عن طريقهما مشاهد النعيم التي وعد الله بها عباده المؤمنين الأبرار. ومن صور النعيم تمتّعهم بشراب الجنان بمختلف أنواعه، وشربهم من عيون الجنّة التي تتفجّر تفجيرا. وبهذا تتكون أمام المتلقي صورة متخيلة لهذا النعيم الأخروي، تبعث فيه احساساً بالتفاؤل والفرح.

ذكرت الآيات الكريمة مراحل خلق الإنسان ونشأته، منذ أن كان شيئاً غير مذكور في عالم الغيب، حتى مرحلة الخلق بأطوارها المختلفة، ومرحلة بلوغه سن التكليف الشرعي، فإمّا أن يكون شاكراً في هذه المرحلة وما تلاها وإمّا أن يكون كفورا، فمن كان كفوراً كان جزاؤه جهنّم وسعيرها، ومن كان شاكراً كان ثوابه الجنة ونعيمها. وقد كان لفواصل هذه الآيات أثرها المحوري المهم في بيان تدّرج نشأة الانسان في عالم الوجود، ومراحل هذه النشأة منذ أن كان في عالم الغيب، حتّى يوم القيامة. وفي هذا دلالة على أهمية الفاصلة على مستوى الدلالة ومستوى التصوير.

(١) ينظر: مجمع البيان ٤/ ١١٠.
(٢) الانسان ١ ـ ٦.
(٣) سبأ ١٣.
(٤) ينظر: تفسير القرآن الكريم، محي الدين بن عربي، تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ٢/ ٧٣٩.

٣ـ الفاصلة الرباعية المقطع

كانت الفاصلة الرباعية قليلة الحضور في بنى السرد الوصفي القرآني، وحينما تتّبعنا الآيات التي ظهرت فيها، تبيّن لنا أن وجودها وتتابعها لم يكونا بالكثرة التي كانت عليها الفاصلة الثنائية والثلاثية، فقد كانت تظهر في آيتين أو ثلاث آيات، ولم يستمر تتابعها في أكثر من هذا العدد من الآيات الكريمة، ومن الآيات التي ظهرت فيها الفاصلة الرباعية قوله تعالى في وصف مشاهد القيامة، والأحداث الكونية التي ستحصل في ذلك اليوم: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا × وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا × وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا × يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)[1]

زِلْزَالَها زِلْـ.زا..لَـ.ها متوسط مغلق + متوسط مفتوح + قصير + متوسط مفتوح

أَثْقالها أَثْـ.قا..لَـ.هـا متوسط مغلق + متوسط مفتوح + قصير + متوسط مفتوح توازي

ما لها ما..لَـ.ها متوسط مفتوح + قصير + متوسط مفتوح صوتي

أخبارها أَخْـ.با..رَ..ها متوسط مغلق + متوسط مفتوح + قصير + متوسط مفتوح متوازن

في الآية الكريمة ثلاث فواصل رباعية، وفاصلة ثلاثية واحدة (مالها). وقد امازت الفواصل الرباعية بالتوازي والتوازن الصوتي، إذ جاءت على نفس الوزن والقافية، وتماثل تشكيلها المقطعي تماثلاً تاماً. إن هذا التوازن الصوتي أوجد إيقاعاً موحداً، وتنغيماً مردداً، يساعد على جذب انتباه المتلقي، ويحلّق به في أجواء الآية.

حققت حروف الفواصل وأصواتها فوائد عدّة، فقد كثّفت هول أحداث يوم القيامة التي ستقع على الأرض، وعمّقتها، وكوّنت إيقاعاً مخيفاً، يبعث شعوراً من الرعب في نفس القارئ والسامع. فالزاي المجهور المنفتح ذو الصفير العالي الذي تكرر مرتين في (زلزالها)، مع صوت الألف المجهور المنفتح الشديد، الذي يحكي العلو والارتفاع، والذي تكرر مرتين، فضلاً عن صوت الهاء المنفتح، كلّ هذه الصفات جسدت صوت الزلزال بدويّه العالي، وبشدته التي تضرب الأرض، وتجعل عاليها سافلها، ونقلت هذا الشعور إلى القارئ والمستمع. فحينما يقرأ القارئ أو يسمع المستمع هذه الفاصلة يحس بدوي ذلك الزلزال الهائل. وتأتي الفاصلة (أثقالها)، ومن خلال صوت الهمزة الشديد المجهور، والقاف الشديد المجهور المقلقل؛ لتجسّد شدة إلقاء الأرض ما في جوفها من الدفائن والأموات، وشدّة اضطرابها في ذلك اليوم، أمّا الفاصلة (أخبارها) فقد نقلت هذا الحدث صوتياً بواسطة جهر الهمزة وشدّتها، وانفتاح الخاء واستعلائه، وجهر الباء وشدّته وقلقلته، فقد حكت صفتا الجهر والانفتاح، جهر الأرض وتحدّثها بأخبارها، وحكت صفتا الشدّة والقلقلة شدّة اضطراب الأرض، وشدّة اضطراب الناس الذين يعيشون عليها، يوم القيامة. وهكذا نرى أنّ لكل صوت دوره في الإيقاع والتأثير وتجسيد الحدث.

صوّرت هذه الفواصل الأحداث الكونية التي ستصيب الأرض يوم القيامة تصويراً فيه الكثير من الدقّة. فقد أشارت إلى شدّة الزلزال الذي سيصيب الأرض عن طريق التكرار بوساطة المفعول المطلق، فالمعنى هو زلزالها الذي تستوجبه والذي ليس بعده زلزال من حيث الشدّة[2]. ثمّ صوّرت إخراج الأرض ما في داخلها عن طريق المجاز العقلي؛ لتوحي بشدّة الاضطراب الذي سيصيبها، وبيّنت تحدُّث الأرض عن طريق المجاز الذي أظهر ((إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتّى ينظر من يقول: ما لها إلى تلك الأحوال فيعلم لِمَ زُلزلت، ولِمَ لفظت الأموات...وقيل ينطقها الله على الحقيقة، وتُخبر بما عُمِل عليها من خير وشر))[3]. لقد أدّت كل فاصلة وظيفتها في تصوير أبعاد المشهد الأخروي بكل تفاصيله ودقائقه، وهي بذلك تعمل عمل الكاميرا في تصوير المشاهد المختارة بكل أبعادها، من أجل نقل هذه الصورة إلى المتلقي.

(١) الزلزلة ١ ـ ٤.
(٢) ينظر: الكشاف ٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٣) الكشاف ٤/ ٢٧٦.

٤ـ تداخل الفواصل

في محاولة اكتناهنا لأنواع الفواصل في بنى السرد الوصفي القرآني، وجدنا بعضاً من الفواصل الثنائية والثلاثية والرباعية تتداخل فيما بينها، وتتناوب بعضها مع بعضها الآخر. ومثال ذلك قوله تعالى: (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ × أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ × إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ × إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ × طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ × فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)[١]

العاملون الـ.عا..م..لون متوسط مغلق + متوسط مفتوح + قصير + طويل مفتوح رباعية

الزّقوم أزْ..زَقـ.قوم متوسط مغلق + متوسط مغلق + طويل مفتوح ثلاثية

للظالمين لِظـ..ظا..لِـ.مين متوسط مغلق + متوسط مفتوح + قصير + طويل مفتوح رباعية

الجحيم الـ..جـَ.حيم متوسط مغلق + + قصير + طويل مفتوح ثلاثية

الشياطين أشـ.شَ..يا..طين متوسط مغلق + قصير + متوسط مفتوح + طويل مفتوح رباعية

البطون ألـ.بـُ.طون متوسط مغلق + قصير + طويل مفتوح ثلاثية

الملاحظ على هذه الفواصل أنّها تبدأ بالفاصلة الرباعية، ثم تليها فاصلة ثلاثية، ثم رباعية فثلاثية، وهكذا، يتحقق التناوب بينها. إنّ هذا التناوب بين الفواصل الثلاثية والرباعية، يخلق تناوباً إيقاعياً متناسقاً، وجرساً موسيقياً متساوقاً، فيه الكثير من الحيوية، والقدرة على كسب انتباه المتلقي، كما أنّه يحقق عنصر المفاجأة. فما أن يقرأ القارئ أو يستمع المستمع الفاصلة الرباعية، حتى يُفاجأ بفاصلة ثلاثية، ثم رباعية وثلاثية، ممّا يثير انتباهه، ويدفع به إلى التفاعل أكثر فأكثر مع النص القرآني المعجز، وبالتالي تتحقق له درجة عالية من الفهم.

المبحث الثالث

الجناس

من المحسنات اللفظية التي أسهمت في إظهار القيم الصوتية، والتناسق الإيقاعي في أسلوب القرآن الكريم، الجناس الذي عرّفه الباقلاني بقوله: ((وأمّا التجانس، فهو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد))[٢]، وعرّفه السيوطي وأشار إلى فائدته بقوله: ((هو تشابه اللفظين في اللفظ، قال في كنز البراعة: وفائدته الميل إلى الإصغاء إليه؛ فإنّ مناسبة الألفاظ تجدد ميلاً وإصغاء إليها، ولأنّ اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى، ثم جاء والمراد به آخر، كان للنفس تشوّق إليه))[٣]. فالجناس هو تشابه اللفظين في النطق، واختلافهما في المعنى، ويسمّى بالتجنيس والتجانس والمجانسة، ولا يستحسن إلاّ إذا ساعد اللفظ المعنى، ووازى مصنوعه مطبوعه، مع مراعاة النظير، وتمكّن القرائن[٤].

يُعدّ الجناس من المنبهات الأسلوبية التي ترتكز على القيم الصوتية الخالصة والتي تفرز إيقاعات معينة ذات تناسب صوتي أو دلالي[٥]، فالجناس يولّد إيقاعاً داخلياً في النص، وللإيقاع أثره المهم في تأكيد المعنى، وإظهاره بشكل جلي، وإبراز العواطف[٦].

بناءً على ما تقدم، يمكننا القول: إنّ تجانس الألفاظ في نص ما يخلق إيقاعاً، وجرساً موسيقياً مؤثراً في المتلقي، ويحقق تنوّعاً واختلافاً في المعاني؛ بسبب تنوع دلالات الكلمات المتجانسة فيما بينها، ويؤدي دوراً في تغيّر الصور، وتتابعها، ويحقق عنصر المفاجأة بالنسبة للمتلقي؛ نتيجة لتشابه الألفاظ في اللفظ واختلافها في المعنى، فما أن يقرأ القارئ، أو يستمع المستمع إلى اللفظة الثانية التي تجانس الأولى حتى يظن أنّها اللفظة والمعنى نفسه، ثم يظهر له أنّ اللفظة نفسها، أو قريبة من مجانستها، ولكن المعنى الثاني مختلف تماماً عن المعنى الأول، وبذلك يتحقق عنصر المفاجأة الذي يمتع المتلقي ويأخذ بعقله وسمعه، وقد تجلى ذلك كلّه في النص القرآني المعجز، إذ كان الجناس حاملاً لقصدية الخالق، ومؤثراً أيّما تأثير في القارئ والسامع على حدٍ سواء.

ظهرت أكثر أنواع الجناس في نصوص السرد الوصفي القرآني، وكان الجناس الاشتقاقي أكثرها حضوراً، وكان الجناس الاشتقاقي المغاير ((وهو أن تكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً))[٧] كثير الظهور؛ ولعل السبب في ذلك كثرة استعمال المفعول

(١) الصافات ٦١ ـ ٦٦.

(٢) إعجاز القرآن، ٢٧١.

(٣) معترك الأقران، ١/ ٣٩٩، وينظر: الإتقان في علوم القرآن، ٣/ ٢١٥.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١٣، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ٣٩٦.

(٥) ينظر: جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الدكتور محمد عبد المطلب، مصر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ١٣٧.

(٦) ينظر: في نقد النثر وأساليبه، إعداد وترجمة: الدكتور عصام الخطيب والدكتور توفيق عز الدين عبد الله، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، العراق، بغداد، ١٩٨٦، ٩٣. وينظر: كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ـ دراسة أسلوبية نسرين جبار الساعدي، رسالة ماجستير، كلية الآداب ـ جامعة بغداد، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، ٣١.

(٧) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، القاهرة

المطلق، الذي يتم بوساطته تأكيد الفعل بمصدره ممّا شكّل ظاهرة أسلوبية جديرة بالانتباه في نصوص السرد الوصفي بشكل خاص، وفي عموم القرآن الكريم بشكل عام. ومن أمثلة الجناس الاشتقاقي المغاير قوله تعالى في وصف أحداث يوم القيامة:

(إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً × وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً)[١].

ظهر الجناس الاشتقاقي المغاير من خلال تجانس الكلمتين (رجّت) (رجّا) و(بُسّت) (بسّا)، فقد أحدث التجانس الأول بين (رُجّت) و(رَجّا) إيقاعاً متناسقاً، وصوتاً مدوياً يوحي بحدث رجّ الأرض من خلال تكرار الأصوات التي أظهرت المعنى وجسّدته بشكل دقيق. فصوت الراء المجهور التكراري المستعلي المُسْتَفِل تداخل مع صوت الجيم الانفجاري المجهور الشديد المستفل المقلقل، ومن خلال تداخل الصوتين، وتفاعلهما مع بعضهما فإنّهما أسهما في إعطاء حدث الرجّ ذلك الدوي الهائل الذي يسمعه الانسان ويحس به، إذ جسّدت صفات الجهر والشدة والتكرار قوّة صوت رج الأرض وشدّته وتكراره، فالرجّ يحدث بتكرار الحركة، وجسدت صفتا الاستعلاء والاستفال حركة الأرض أثناء رجّها إلى الأعلى والأسفل، وأظهر ألف الإطلاق في (رجّا) من خلال شدّته وجهره شدّة هذه الحركة واستمرارها حتى يتحقق مبتغاها، وهو أن تكون الأرض والجبال هباءً منبثا، أي غباراً منتشرا في الفضاء، وهذا ما حققته صفة الانفتاح في الألف. فهذا الغبار ينفتح على الفضاء الخارجي وينتشر فيه، وأظهر صوت الجيم الانفجاري المقلقل قوة فعل الرج، فحينما يحدث هذا الحدث يكون أثره على الأرض كأثر الانفجار الهائل الذي يدمّر كلّ شيء، ونبّه النبر الذي وقع على حرف الجيم بوساطة تشديده، على أهمية هذا الحرف في الكلمة، ودوره في تجسيد الحدث صوتياً، وبيان شدّته.

هناك ميزة أخرى لهذا الجناس هي ميزة معنوية، وهي إسهامه في تأكيد معنى الرج، ودلالته على شدّته من خلال تكرار فعل الرج بوساطة المصدر (المفعول المطلق)، فلو كان التعبير مثلاً: (إذا رجّت الأرض) لما كان للفعل تلك الشدّة والقوة التي ظهر عليها في النص القرآني. كما أنّ لهذا الجناس ميزة ثالثة هي قيامه بتصوير الحدث تصويراً دقيقاً ومؤثراً ومخيفاً للمتلقي، يبعث في نفسه الرهبة من يوم الفزع الأكبر، ويهيّئهُ لأحداثه بوساطة تصويرها بتلك الدقة المتناهية، ويعمّق إحساسه بها؛ كي لا يُفاجأ في ذلك اليوم الموعود.

أحدث التجانس الثاني (بست) (بسا) جرساً موسيقياً عالياً بوساطة حرفي الباء المجهور الشديد المقلقل والسين المتميز بصفيره، فقد أشار فعل البسّ إلى تفتّت الجبال حتى تصير كالدقيق والسويق المبسوس، أي المبلول[٢]. ثم تصير غباراً منتشراً، وقد تجلى هذا المعنى عن طريق صفات الحروف، إذ حكت صفات الجهر والشدّة والقلقلة شدّة تفتيت الجبال، وعلو صوت هذا الفعل، والاضطراب الذي سيحدث بسببه، وأظهر صفير السين علوّ هذا الصوت وحدّته وأظهرَ شدّة التاء، وشدة الألف وانفتاحه وجهره واطلاقه شدّة التفتيت وتلاشي ذرات الجبال في الفضاء الفسيح تلاشياً تاماً، وقام نبر حرف السين، بوساطة شدّة الضغط عليه، بالإيحاء إلى شدّة الضغط الهائل الذي تتعرض له الجبال، حتى تتفتت، وعلو صوت هذا التفتيت وانتشاره.

كانت الوظيفة الأخرى لهذا الجناس هي التأكيد على تفتيت الجبال، بعد رجّ الأرض، وتأكيد أنّ هذا التفتيت يكون بشكل تام وكلّي، إذ لايبقى منها شيءٌ يذكر وتصبح الأرض التي كانت تعلوها هذه الجبال أرضاً منبسطة، وكأنّها كانت كذلك منذ السابق، فلا أثر للجبال عليها. وهذه صورة في غاية الروعة لهذا الحدث، وتشكّل استباقاً زمنياً لحدث البسّ الذي أراد الخالق تعالى أن يهيء عباده له.

ورد الجناس الناقص بين كلمتين (السماء) و(ماء) في الكتاب العزيز أربعاً وعشرين مرة، وكانت حصة نصوص السرد الوصفي القرآني منها سبعاً، وقد تظهر في نصوص المستوى الثاني (وصف قدرة الله وآياته في الكون). قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي

١٣٨٣هـ ١٠٤.

(١) الواقعة ٤ ـ ٥.

(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٤٨٨.

ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)[١]

إنّ أهم ما يميّز هذا الجناس على المستوى الصوتي هو أن الألف في الكلمتين المتجانستين تُمدُّ مدّاً متصلاً عند التلاوة بمقدار ٤ ـ ٥ حركات ممّا يساعد على مدّ الصوت وتنغيمه نغماً يناسب نوع التلاوة سواء أكانت حَدْراً أم ترتيلاً أم تجويداً، ويناسب نوع النغم الذي يختاره القارئ لتلاوة الآية. وكنتيجة لذلك فإنّ هذا المدّ الطويل نسبياً في الصوت سوف يعمل على جذب انتباه السامع، ويحقق الإيقاع الذي يجعله يتفاعل مع الآية القرآنية، ويتدبّر في فحوى كلماتها، ويستكنه قدرة الله وآياته في تسيير الكون.

إنّ اشتراك حروف الميم والألف والهمزة، التي تكوّن الجناس بين الكلمتين (سماء) و(ماء) في بعض الصفات كالجهر والاستفالة والانفتاح جعلهما ينسابان انسياباً عذباً عند القراءة، فلا يحس القارئ أي توقف أو تلكؤ عند النطق بهما، وتشير صفة الاستفالة، التي تعني لغة: الانخفاض، واصطلاحاً: انخفاض ونزول أقصى اللسان عن الحنك الأعلى إلى قاع الفم عند النطق[٢]، إلى نزول المطر من السماء إلى الأرض، وتُظهر صفتا الجهر والشدّة في الألف والهمزة صوت المطر وشدّته حين نزوله.

يرغبّ الباري المؤمنين في سورة الواقعة، في نص من نصوص الترغيب الرائعة، ويمارس الجناس المصحّف دوره في إظهار القيم الصوتية والدلالية في الآية الكريمة، وفي إظهار النعيم الذي سيحصل عليه أصحاب اليمين. يقول تعالى:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ × فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ × وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ)[٣].

اتّمازَ الجناس بين لفظتي (مخضود) و(منضود) من الناحية الصوتية، بعدّة ميزات، منها أن حرف المدّ (الواو) في الكلمتين يُمدّ مدّاً عارضاً للسكون حين الوقوف عليهما بمقدار (٢ ـ ٤ ـ ٦) حركات، وغالباً ما يُمدّ بمقدار ست حركات ممّا يساعد القارئ على تنغيم صوته، وبذلك يقوم هذا المدّ بإثارة انتباه القارئ والسامع؛ ليستشعرا النعيم الذي سيحصل عليه المؤمنون في الآخرة.

من ميزات هذا الجناس أنّ صفات الحروف المتماثلة في الكلمتين كانت تشير إلى خضد السدر ونضد الموز، فصوت الميم الرخو المستفِل المنفتح تفاعل مع صوت الضاد الرخو المستفِل، وتفاعل هذا بدوره مع صوت الواو الرخو المستفِل المنفتح، وصوت الدال المستفِل المنفتح؛ لتتجلى صورة تدلي ثمار النبق والموز، ونزولها إلى مكان قريب على المؤمنين؛ لتسهيل عملية القطاف، وهذا ما نبهت عليه صفة الاستفال، وأشارت صفة الرخاوة إلى طراوة وليونة أغصان السدر والموز، فالرخاوة لغة: اللين، واصطلاحاً: جريان الصوت عند النطق بالحرف؛ لضعف الاعتماد على المخرج[٤]. أمّا صفة الانفتاح التي تعني لغة الافتراق، واصطلاحاً انفتاح قليل من اللسان والحنك إلى الأعلى[٥]، فقد أشارت إلى افتراق الثمار عن الأشجار حينما يقطفها أهل الجنة.

ثمّة ميزة صوتية ثالثة لهذا الجناس، هي نهاية الكلمتين المتجانستين بحرف الدال، الذي تميّز بقلقلته الوسطى، حين الوقوف عليه، ممّا يُحدث نبرة قوية جراء اضطراب مخرج الحرف عند النطق به ساكناً، هذه النبرة القوية تفعل فعلها في جعل المستمع ينتبه إلى الكلمة، ويتمعن في فحواها، الذي يشير إلى النعيم الأخروي في جنان الخلد، ثم يستوعبها استيعاباً تاماً.

فضلاً عن الوظيفة الصوتية التي قام بها هذا الجناس، فإنّ له وظيفة دلالية فقد أعطت كلمة (مخضود) تلك الصفة التي انماز بها سدر الجنة، وهي خلوّه من الشوك، فهو ليس كسدر الدنيا، فقد نُزع عنه شوكُه، وانثنت أغصانه؛ لكثرة حمله، وأعطت كلمة (منضود) صفة التنظيم والترتيب وكثرة حمل شجرة الموز للثمار من أسفلها إلى أعلاها، بحيث أنّ ساقها لم يُعد مرئياً؛ لكثرة الموز المتدلي منها[٦]. إنّ هذه الصورة التي أظهرها الجناس كانت في غاية الدقة والروعة، وأعطت الترغيب الذي امتازت به هذه الآيات جواً من الراحة والطمأنينة، وإحساساً مفرحاً للمؤمنين بالنعيم الي أعدّ لهم.

في سورة العاديات يرد الجناس اللاحق في قوله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ × وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ × وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[٧]؛ ليصف لنا حال الانسان. وقد امتاز الجناس بين (شهيد) و(شديد) صوتياً بوجود حرف المد (الياء)، الذي يُمدّ مداً عارضاً للسكون، فيحدث ترجيعاً صوتياً منغمّاً نغماً متناسقاً حين الوقوف على الكلمتين، ويعمل هذا الترجيع في إحداث إيقاع متجانس، يفعل فعله في المتلقي، ويُحدث فيه التأثير المرجو. وامتاز كذلك بأن صفات الحروف المتشابهة في الكلمتين كانت تؤدي معنى الشهادة والشدّة، فالشين المتفشيّ حكى انتشار هاتين الصفتين بين الناس؛ لأنّ التفشي ((لغة: الانتشار والاتساع، واصطلاحاً: انتشار الريح في الفم عند النطق بالحرف))[٨]، وأظهر الياء المجهور من خلال تفاعله مع الدال المجهور الشديد صفة جهر الانسان بشهادته، وشدّة حبّه للخير والنعيم والمال.

دلّ هذا الجناس على واقع الإنسان، وجحوده وكفرانه لنعمة

(١) النحل ٦٥.
(٢) ينظر: دروس في علم التجويد، أعد وجمع في الجامع الهاشمي، إشراف السيد حسين الصدر، مراجعة علاء الدين القيسي، ط١، ٢٠٠٢، ٤٦.
(٣) الواقعة ٢٧ ـ ٢٩.
(٤) ينظر: دروس في علم التجويد ٤٥.
(٥) ينظر: نفسه ٤٦.
(٦) ينظر: مقتنيات الدرر ١١/ ٢٨.
(٧) العاديات ٦ ـ ٨.
(٨) دروس في علم التجويد ٥٢.

الله عليه، فهو يشهد على نفسه بذلك؛ لظهور أثره عليه، وتمكنه منه، ولعلمه بأنّ الخالق لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض، وهو شديد الحب للمال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة، شديد الحرص عليه، شديد البخل في إنفاقه، وبذلك نرى الجناس يقوم بدوره في دقة تصوير صفات الانسان السلبية، علّه يرتدع عنها ويتركها ولا يعود إليها.

المبحث الرابع

التوازي

في محاولة تأصيل مفهوم التوازي في النقد الغربي، أجمع الدارسون والنقاد على أنّه مفهوم جديد إذا ما قورن بالمفاهيم المتواضع عليها في البلاغة الغربية، فتلك المفاهيم وإن كانت قريبة منه، إلا أنّها لا تشكل معادله الصحيح، ولا تعبّر عنه بشكل دقيق؛ ذلك لأنّ التوازي بديل لساني حلّ محل المفاهيم التي تختزل كل أشكال التوازن والتناظر البلاغية[١]، فهو يعبّر عن الانحراف الأسلوبي، وليس المساواة أو المطابقة الدلالية، كما يعبّر عن تزامن الأشياء، وتجاورها في المكان الذي يؤدي وجوده بهذا الشكل إلى خرق أنظمة اللغة الاعتيادية[٢].

كان أول من اقترح التوازي وسيلة للتحليل هو الراهب (ر.لوث R.Lowth عام ١٧٥٣م، فقد حلّل الآيات التوراتية في ضوء ثلاثة مظاهر من التوازي هي: التوازي الترادفي، والتوازي الطباقي، والتوازي التوليفي. ومنطلق لوث في تحديد التوازي، هو أنّه عبارة عن تماثل قائم بين طرفين من نفس السلسلة اللغوية وقد فسّر بلير Blair أحد معاصري لوث، ذلك بأن هذين الطرفين عبارة عن جملتين لهما نفس البنية، بحيث يكون بينهما علاقة متينة تقوم إمّا على أساس المشابهة أو على أساس التضاد[٣].

يرجع الأثر الكبير في تحديد هذا المفهوم إلى التقاطع الحاصل في الدرس النقدي الحديث بين اللسانيات والشعرية[٤]، إذ نصّ رومان جاكوبسن على أنّ التوازي ((عنصر قد يحتل المنزلة الأولى بالنسبة للفن اللفظي))[٥]. وإذا كان جاكوبسن قد حدّد خصائص التوازي في أنّه عبارة عن تأليف ثنائي يقوم على أساس التماثل الذي لا يعنى التطابق، فإنّ هذا التحديد شكّل قاعدة مثلى، ومنطلقاً أساساً لكل الدراسات اللاحقة، فيوري لوتمان، الذي يرى أنّ معالجة التوازي تتم أثناء تحليل دور التكرار في الشعر، يعرّف التوازي بأنه: ((مركب ثنائي التكوين أحد طرفيه لا يعرف إلا من خلال الآخر، وهذا الآخر، بدوره، يرتبط مع الأول بعلاقة أقرب إلى التشابه...ومن ثمّ فإنّ هذا الطرف الآخر يحضى من الملامح العامة بما يميّزه الإدراك من الطرف الأول، ولأنّهما في نهاية الأمر طرفا معادلة وليسا متطابقين تماماً فإننا نعود ونكافئ بينهما على نحو ما، بل ونحاكم أولهما بمنطق وخصائص سلوك ثانيهما))[٦].

ولأنّ التوازي في رأي ج.مولينو J.Molino وج.تامين J.Tamine قد ظهر تاريخياً ليعيد الاعتبار لظواهر تتعلق بالمستوى الصرفي ـ النحوي، وبدرجة أقل، المستوى الدلالي، فهما يعرّفانه بأنّه بمثابة متواليتين متعاقبتين أو أكثر لنفس النظام الصرفي ـ النحوي المصاحب بتكرارات أو باختلافات إيقاعية وصوتية أو معجمية ـ دلالية[٧].

إنّ إنعام النظر في الكلام المتقدم يُمكّننا من استخلاص عدّة خصائص للتوازي، يمكن إجمالها بالنقاط الآتية:

١ـ التوازي عبارة عن علاقة تماثل تتم على مستوى أو مستويات لسانية بين طرفين أو أكثر.

(١) ينظر: التوازي ولغة الشعر، محمد كنوني
member. ly cos. fr/ abedjabri/ n ;// http ١٨ ٠٧ kannun.
٢٧/١١ /٢٠٠٧ htm .
(٢) ينظر: التوازي في القرآن الكريم، وداد مكاوي الشمري، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٠٣.
(٣) ينظر:التوازي ولغة الشعر، محمد كنوني
(٤) ينظر: نفسه.
(٥) قضايا الشعرية، رومان ياكوبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، سلسلة المعرفة الأدبية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨١، ١٠٣.
(٦) تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، لوتمان، ترجمة محمد فتوح أحمد، ١٢٩، نقلاً عن: التوازي ولغة الشعر، محمد كنوني
(٧) ينظر: التوازي ولغة الشعر

٢ـ تعتمد العلاقة القائمة بين هذين الطرفين على مبدأين هما التشابه والتضاد، مادام كل طرف يحتفظ، على الرغم من التشابه، بما يتميّز به عن الآخر.

٣ـ يحقق التوازي إيقاعاً تكرارياً قائماً على ما يأتي:

أ. التجانس الصوتي.

ب ـ الترتيب: ترتيب الكلمات داخل الآية بوصفها بنية مصغرة توازي بهذا الترتيب بنية أخرى مثلها مجاورة لها. وليس شرطاً أن يكون هذا الترتيب نحوياً أو صرفياً أو بلاغياً، وإنّما يكون مؤتلفاً دلالياً أو منتظماً صوتياً.

ج ـ الانتاج الدلالي المستمر مع تغاير الصور.

د ـ تقوم بنية التوازي على الاحتجاج مع الاستقصاء (استيفاء وصف الحالات) وهذا كلّه يجري مساوقاً مع المستوى الصوتي (الإيقاع) بكل وسائله التي يتشكل منها.

هـ ـ التقارب بين الوحدات اللغوية، وبين التراكيب المتوازية.

٤ـ يقوم التوازي بعملية إيقاع صوتي مبطن بالفكر، وهذا ما نجده متحققاً في البنى المتوازية في نصوص السرد الوصفي القرآني.

في حدود اطلاعنا فإنّ الرسائل والأطاريح الجامعية التي اتخذت من الأسلوبية منهجاً لها في دراستها ونقدها النصوص لم تدرس التوازي حينما درست الجوانب الصوتية في النصوص المدروسة، ولم تُعِرهُ اهتمامها، على الرغم من أهميته في إظهار التجانس الصوتي وتقابل الكلمات وترتيبها داخل النص.

عند استقرائنا الدقيق للآيات التي ورد فيها التوازي ظهر لنا أن هناك عدة أنواع من التوازي، بحسب العناصر المتوازية، يمكن تقسيمها في عدّة مستويات هي:

١ـ توازي عنصرين متساويين في القيمة (توازي القيمة)

قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ × وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)[١]

تشير لفظتا (الأبرار) و(الفجار) إلى الناس، والناس متساوون متكافئون في الانسانية، فالبر إنسان، والفاجر إنسان، وهذه هي علاقة التشابه والتساوي في القيمة. أمّا التضاد في هاتين البنيتين المتوازيتين فقد ظهر من خلال لفظتي (الأبرار) و(الفجار) و(نعيم) و(جحيم). وحقق التوازي إيقاعاً صوتياً بوساطة تكرار الحرف المشبّه بالفعل (إنّ)، المكوّن من الهمزة المجهورة الشديدة والنون ذي الغنّة المجهور، إذ أحدث تكرار هذين الحرفين صوتاً عالياً شديداً وغُنّة مؤثرة في المتلقي بمقدار أربع حركات مع بداية كل تركيب من التركيبين المتوازيين، أمّا تكرار لام التوكيد مع حرف الجر المتكون من تفاعل اللام برخاوته واستفاله مع الفاء برخاوته واستفاله وهمسه، مع الياء برخاوته واستفاله فقد حقق إيقاعاً متميزاً بهدوئه وهمسه، ممّا يجعل التركيب ينتهي بصوت مهموس هادئ، بعد أن بدأ بصوتٍ عالٍ، وهذا الأمر يحقق تشابهاً وتضاداً حتى على مستوى الصوت، وهذان هما المبدآن اللذان يقوم عليهما التوازي كما أشرنا سابقاً.

امتاز التركيبان باختلافهما من حيث الدلالة، فالتركيب الأول فيه ترغيب للمؤمنين الأبرار، على حين كانت دلالة التركيب الثاني هي الترهيب للكفار والفجار. وقد حقق هذا الأمر اختلافاً في الصورتين، إذ أشارت الأولى إلى نعيم الجنان، وأشارت الثانية إلى عذاب الجحيم وفي ذلك إنتاج دلالي مستمر، مع تنوّع الصور المتمظهرة من خلال التركيبين المتوازيين.

في مطلع سورة الانشقاق نجد توازي القيمة يتجلى في قوله تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ × وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ × وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ)[٢]، فقد حصل التوازي بين التركيبين إذا السماءُ انشقَّت// وإذا الأرضُ مُدّتْ.

قام هذا التوازي بوصف ما سيقع على السماء والأرض في يوم القيامة، وتميّز بترتيبه الدقيق، وتقابل كلماته، وبتناسقه الصوتي إذ أسهم تكرار أداة الشرط (إذا) وبوساطة تفاعل الهمزة المجهورة الشديدة المنفتحة مع الذال المجهور المنفتح مع الألف المجهور الشديد المنفتح في إعطاء التركيبين، عند بدء النطق بهما، صوتاً عالياً وشدّة وانفتاحاً يتناسب مع هول الحدث وشدّته، وقوة تأثيره، كما أشار حرف التاء الساكن المتميّز بهمسه واستفاله إلى السكون والهدوء الذي يحصل بعد نهاية فعلي الشقّ والمدّ.

تصوّر البنيتان المتوازيتان مشهدين من مشاهد القيامة، يقع الأول منهما على السماء حينما تنشق بعد الالتئام، وتنفصل عن المجرة، ويقع الثاني على الأرض حينما تنبسط بعد دكّ الجبال ونسفها، فتصير كالصحراء التي لا كثبان فيها، وهذا يعني أنّها تُسوّى بحيث لا يبقى فيها جبل ولا تلّة ولا بناء مطلقاً[٣]. إنّ هذين المشهدين يمثلان استباقاً زمنياً لحدثين مهمين من أحداث يوم القيامة، أسهم التوازي في تصويرهما تصويراً دقيقاً.

٢ـ توازي عنصر من تكوين تام مع عنصر مغاير.

ومثاله قوله تعالى:

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً × وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً)[٤]

الجبال هي تكوين مغاير للسماء، فهي عبارة عن كتل من الحجارة بمختلف أنواعها وتكويناتها، كما أنّها ثابتة على الأرض،

(١) الانفطار ١٣ ـ ١٤.

(٢) الانشقاق ١ ـ ٣.

(٣) ينظر: الجديد في تفسير القرآن ٧/ ٣٣٨.

(٤) الطور ٩ ـ ١٠.

أمّا السماء فهي تكوين أثيري غير ثابت.

تمارس البنيتان دورهما في إظهار القيم الصوتية من خلال ترتيب كلماتهما على المستوى النحوي والصرفي والبلاغي، ممّا يخلق إيقاعاً وتجانساً صوتياً على مستوى عالٍ من الدقّة. فالفعل المضارع (تمور) يوازي الفعل المضارع (تسير)، والفاعل (السماء) يوازي الفاعل (الجبال)، والمفعول المطلق (مَوْراً) يوازي المفعول المطلق (سيراً)، وحكى حرف الراء الذي تكرر أربع مرات، ومن خلال جهره وتكراره. حدث المَوْر الذي يعني التحرك والاضطراب، وحدث السير السريع للجبال، إذ أظهرت صفة الجهر صوت حركة السماء واضطرابها، وصوت سير الجبال السريع، وأظهرت صفة التكرار تكرار حركة السماء والجبال يوم القيامة.

دلّ توازي الآيتين على حدثين من أحداث يوم القيامة، أولهما هو تحرك السماء واضطرابها ودورانها، فالسماء تدور كما تدور الرحى، وتنكفئ بأهلها كما تنكفئ السفينة، وتختلج أجزاؤها بعضها في بعض، ويموج أهلها ويختلطون، وثاني الحدثين هو زوال الجبال من أماكنها حتى تستوي الأرض، فهي تسير كما تسير السحاب حتى تصير في النهاية كالعهن المنفوش. وهذه صورة مهولة لأحداث يوم القيامة.[١]

٣ـ توازي عنصر من تكوين تام مع عنصر ينتمي إليه.

قال تعالى في وصف القرآن الكريم:

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى)[٢]

حدث التوازي بين التركيبين

سيّرت به الجبالُ// أو قطّعت به الأرض.

تنتمي الجبال في تكوينها إلى الأرض، فهي جزء منها. فالأرض هي التكوين التام والجبال هي العنصر الذي ينتمي إليها، وقد توازى التركيبان توازياً تاماً، فتوازى الفعل الماضي المبني للمجهول المتصل بتاء التأنيث (سُيّرتْ) مع (قُطّعتْ) الذي ماثله في الصفات، وتوازى الجار والمجرور (بِهِ) مع مثيله، وتوازى نائب الفاعل (الجبال) مع نائب الفاعل (الأرض). هذا التناسق والتماثل بين الجملتين المتوازيتين أحدث إيقاعاً متماثلاً متناسقاً. وأسهم النبر في الفعلين (سيِّرَتْ) و(قُطِّعَتْ) وعن طريق شدّة الضغط على حرفي الياء والطاء المشددين في بيان شدّة تسيير الجبال وتقطيع الأرض، كما نبّه على أهمية الفعلين، اللذين ورد فيهما، في رسم المشهد وتجسيده.

قام التوازي على المستوى الدلالي بوصف القرآن بغاية ما يمكن من علوّ المنزلة، وبلوغه أعلى طبقات الجلال؛ لأنّه تعالى قال: لو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال من مواضعها، وقلعت من أماكنها؛ لعظم منزلته، وجلال قدره، أو قُطّعت به الأرض للسبب نفسه، أو كلّم به الموتى لكان هذا القرآن، وحُذفَ جواب (لو) لدلالة الكلام عليه. وهكذا نجد هذا التوازي يشير إلى عظمة القرآن الكريم، ويصور ذلك بوساطة تقابل صورتي تسيير الجبال، وتقطيع الأرض قطعةً قطعة. ولعلّ معرفة سبب نزول الآية يُعمّق من فهمنا لدلالتها، فقد روي أنّ أهل مكة سألوا النبي (ص) أن يسيّر عنهم جبال مكة؛ لتتسع عليهم، فأنزل الله جلّ شأنه الآية، وبيّن أنّه لو سيّرت الجبال بكلام، لسيّرت بهذا القرآن؛ لأنّه عظيم المنزلة جليل القدر.[٣]

هناك آية أخرى ظهر فيها هذا النوع من التوازي هي قوله تعالى:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً × وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً)[٤]، إذ وصف الباري في بنية التوازي هذه حدثين من أحداث يوم القيامة، وقد تقدّم الكلام على الآيتين وقيمهما الصوتية في مبحث (الجناس)، فلا نرى من حاجة لتكرار الكلام في هذا المبحث.

٤ـ توازي عناصر لا ينتمي بعضها إلى بعض.

قال تعالى واصفاً أحداث يوم القيامة وأهواله:

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ × وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)[٥]

(١) ينظر: مقتنيات الدرر ١٠/ ٢٤٢.

(٢) الرعد ٣١.

(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٦/ ٢٥٣.

(٤) الواقعة ٤ ـ ٥.

(٥) القارعة ٤ ـ ٥.

نجد في هاتين البنيتين المتوازيتين أنّ ثمة عناصر متوازية تختلف عن بعضها، فالناس والفراش عبارة عن كائنات حيّة متحركة تحلّها الحياة، بينما الجبال والعهن عبارة عن أشياء جامدة ساكنة لا تحلّها الحياة.

أسهم التوازي في تحقيق الإيقاع المتوازن بين الآيتين، وكان لحرف النون الذي تكرر خمس مرات أثره في إظهار النغم الجلي، ولاسيما في كلمة (الناس) إذ يتم التوقف عليه بمقدار أربع حركات، مع وجود الغُنّة، وفي كلمة (المنفوش) إذ يتم إخفاء النون في الفاء مع وجود الغنّة التي مقدارها أربع حركات. إنّ وجود الغنّة في التركيبين المتوازيين يُحدث نوعاً من التوازي الصوتي عند التلاوة، بحيث يفعل فعله في المتلقي، ويجذب انتباهه للمتمعّن في فحوى الآية، كما أنّه يمنح القارئ فرصةً لإظهار الترجيع الصوتي عن طريق النغم الذي اعتمد عليه في تلاوته للآية.

إنّ الإنتاج الدلالي في الآيتين منحنا مشهدين رائعين من مشاهد القيامة. فالمشهد الأول يصوّر الناس ويشبههم بالفراش المنتشر المتطاير في الفضاء، الذي يتجه في كل اتجاه باحثاً عن قوته، وعن مواقع سلامته، وقد يصطدم بالنار فيحترق فيها، وهكذا يكون حال الخلق يوم القيامة، عندما يعيشون الذهول والحيرة والرعب، فيتحركون هنا وهناك، باحثين عن السلامة من غير وعي؛ لفخامة الهول الذي يواجهونه في مستقبل أمرهم، فيتساقط الكثير منهم في النار، كما يتساقط الفراش فيها عندما يتجه إليها من دون شعور. ويصوّر المشهد الثاني الجبال ويشبهها بالصوف المندوف الذي تفرّقت أجزاؤه عن بعضها، وهذا هو حال الجبال حينما تُنسف وتُبس وتُدك، فتتحلل في ذراتها الصخرية والترابية وتتطاير في الفضاء عندما تذروها الرياح. وهاتان صورتان في غاية الهول، توحيان بالتغيير الكبير الذي يتساقط فيه النظام الكوني؛ ليفسح المجال لعالم جديد، كان غيباً في الذهنية الإنسانية، فتحوّل إلى حس يشاهده الناس، ويتحركون فيه؛ ليواجهوا مصيرهم فيما ينتظرهم فيه من مواقع وأوضاع، إذ يحدد لكل انسان نهايته الخالدة في الجنة أو في النار.[١].

وممّا تقدم الكلام فيه، يظهر لنا أثر التوازي المهم والمتميّز في إبراز الجانب الصوتي، وفي إظهار الإيقاع القائم على التجانس الصوتي، والتناسق النغمي، وفي ترتيب الكلمات داخل البنى المتوازية، فضلاً عن قيامه بعملية الإنتاج الدلالي المستمر مع تعدد الصور وتنوّعها تنوّعاً يجذب المتلقي، ويحثّه على التأمل في آيات الله سبحانه وتعالى.

(١) ينظر: من وحي القرآن ٢٤/ ٤٤٦.

الفصل الثالث

تشكُّلات بنى السَّرد الوَصفي اللّسانية

المبحث الأول: الأسلوب الخبري.

المبحث الثاني: الأسلوب الإنشائي.

المبحث الثالث: الظواهر التركيبية.

توطئة

إنّ الأسلوبية تستثمر المادة اللسانية في النص فنياً، وتقوم بعملية رصد تشكلات هذه المادة، عبر تمظهراتها المتعددة، ومن ثمّ تحللها على وفق الكيفيات والغايات المتبعة في نظمها وتركيبها، بمعنى أنّها تقوم بعملية استرداد مقاصد منتج النص.

يقوم منتج النص بنظم كلامه بكيفية خاصة وبقصدية وهدف معينين، وعلى منوال محدد ترتبط فيه الكلمات بعلاقات نحوية معينة؛ كي يتسنى له أن يعبّر عن غرضه، ويمكّن متلقيه من فهمه اعتماداً على القرائن التي تعينه على الإفصاح عن مقصوده. وهذه القرائن يدركها المنتج، ويستعين بها في صياغة نصّه بطريقة تجعل هذا النص قادراً على تحقيق الإفهام والفهم.

إنّ الكلمات تدل على معانٍ معجمية أو قواعدية أو هما معاً، وإنّ ائتلاف بعضها ببعضها الآخر ينشأ عنه معان جديدة، ولذا لا يمكن القول: بأن الدلالة التركيبية هي الدلالة الناشئة عن مجموع الدلالات الجزئية، أي دلالة الكلمات فحسب، بل إنّها تشتمل على هذه الدلالات وزيادة. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: من أين تأتي تلك الزيادة؟ وسنحاول الإجابة عن هذا السؤال بوساطة الموازنة بين إحدى الجمل صحيحة السبك، وما يساويها كماً من الكلمات المنفصلة التي ينقصها تعلّق بعضها ببعض على وجه من الوجوه المألوفة في اللغة العربية؛ كي نتأكد أنّ الدلالة التركيبية لا تقتصر على مجموع دلالات الأجزاء فقط.

أ ـ يقرأ محمدٌ القرآن بصورةٍ جيّدة ورائعة.

ب ـ ورائعة محمد جيّدة القرآن بصورة يقرأ.

فبالموازنة بين (أ) و(ب) نلحظ أن الدلالة المفهومة من الجملة الأولى تختلف عمّا يُفهم من الكلمات المنفصلة المرتبة على النحو الذي هي عليه في (ب)؛ لأنّ الجملة الأولى تشتمل، فضلاً عن معاني الأجزاء المتكوّنة منها، على دلالة تركيبية تظهر بوساطة ترتيب الكلمات بشكل صحيح [٢].

ويؤكد صحة الكلام المتقدّم ما ذهب إليه أبو سعيد السيرافي في ردّه على متّى بن يونس، حين بادر الأخير، في مناظرة لهما، بقوله: ((يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإنّي أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتها لي يونان))[١] فردّ أبو سعيد: ((أخطأت؛ لأنّك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى رصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها))[٢]. ولعلّ السيرافي كان يدرك تمام الإدراك أنّ ترتيب الكلمات في العربية ليس كلّ شيء في فهم تراكيبها فأردف قوله السابق بقوله: ((وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ أو الفساد في المتحركات، وهذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة))[٣]

بناءً على ما تقدم يمكننا القول: بأنّ اللغة ليست مجرد كلمات مرصوفة لا يجمع بينها نظام معيّن، وإنّما هي مجموعة من العلاقات. فعند استخدامنا للّغة نعمد إلى اختيار الكلمات، ثمّ نؤلّف بينها في هيئات تركيبية محكومة ومنضبطة بقواعد خاصة. وهذه التراكيب هي ما نطلق عليه تسمية (الجمل). فالألفاظ وهي مفردة لا تفيد معنًى، وإنّما تكتسب المعنى حين ينظم بعضها إلى بعض في جمل مركبة تركيباً صحيحاً [٤]. وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: ((والألفاظ لا تفيد حتّى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنّك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي بني عليه، وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

منزل قفا ذكرى من نبك حبيب

أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان، نعَم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين مُنشئه، بل أحَلْتَ أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص بمتكلم، وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي لهُ كانت هذه الكلم بيت شعر، أو فصل خطاب، هو ترتيبها على طريقة معلومة وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة))[٥].

من جهة ثانية فإنّ الدلالة التركيبية ترتبط بمفهوم الفائدة، ولا تتحقق هذه الفائدة إلا بائتلاف الكلام، وضمّ بعضه إلى بعض على وجه من الوجوه النحوية الصحيحة، فحين يعبّر منتج النص عن مقصدٍ معين من مقاصده، فإنّه يقوم بإيجاد علائق متساوقة بين الكلمات؛ لكي يحقق هدفه في إيصال رسالته وإبلاغها وإفهامها للمتلقي بالشكل الذي يراه صحيحاً وموصّلاً لأفكاره فإذا ما انحرف عن القواعد التركيبية الصحيحة في لغته، فإنّ إفهامية النص ستضمحل، وبالتالي سيضمحل فهم المتلقي لذلك النص، ونتيجة لذلك ستنعدم الفائدة المرجوّة للنص.

المبحث الأول

الأسلوب الخبري

سنركز في هذا المبحث على ثلاثة أساليب هي: التوكيد والشرط والنفي؛ لأنّ هذه الأساليب قد تمظهرت بشكل جلي في بنى السرد الوصفي القرآني، كما أنّها حققت كثيراً من الدلالات التي تنوّعت إيحاءاتها ومعانيها.

١ـ التوكيد.

قلنا فيما سبق: إن النصّ القرآني خاضع للشروط الإلهية المنتجة له، وتنقسم هذه الشروط على قسمين هما.

أ ـ شروط فكرية.

ب ـ شروط لغوية تركيبية.

ولأنّ النص القرآني موجّه توجيهاً قصدياً، فإنّ من جملة أهدافه قيام الحجة على الناس والبرهنة عليها بوسائل لغوية مخصوصة، وهذا الأمر يتطلّب أعلى درجات الإثبات والتوكيد، ولتحقيق هذه

(٢) ينظر: وصف اللغة العربية دلالياً، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٩٣م، ٢٧١.

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١/ ١١٥.

(٢) نفسه ١/ ١١٥.

(٣) نفسه ١/ ١١٥.

(٤) ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، ١٩١.

(٥) أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، ٢.

الدرجات فإنّ مبدع النص القرآني سيتجه إلى استخدام أساليب التوكيد والشرط والقسم. وقد كانت هذه الأساليب ـ ومنها التوكيد ـ ترد بشكل تصاعدي؛ بقصد التأثير في المتلقي، وتحقيق الدلالة الوظيفية القائمة على الإفهام والإقناع والتأثير.

والقصد من التوكيد تأكيد المعنى وتمكينه في نفس المتلقي، وهو على نوعين كما قال ابن السراج: ((إمّا توكيد بتكرير الاسم، وإمّا أن يؤكد بما يحيط به.

الأول: وهو تكرير الاسم: اعلم أنّه يجيء على ضربين: ضربٌ يعاد فيه الاسم بلفظه، وضرب يعاد معناه. فأمّا ما يعاد بلفظه فنحو قولك: رأيت زيداً زيداً...

الثاني: هو إعادة المعنى بلفظٍ آخر، نحو قولك: مررت بزيدٍ نفسه، وبكم أنفسكم...

الضرب الثاني: جاءني القوم أجمعون، وجاءني القوم كلّهم، وجاؤوني أجمعون وكلّهم، وإنّ المال لك أجمع وأكتع...))[١].

وثمّة أبواب أخرى تفيد التوكيد ذكرها النحاة ((في مواضع متفرقة من دراساتهم، منها التأكيد بـ(إنّ) و(أنّ) ولام الابتداء... ومنها التأكيد بزيادة الحروف أو الأسماء، أو الأفعال، ومنها التأكيد بالمصادر في المفعول المطلق، ومنها التأكيد بنوني التوكيد الخفيفة والثقيلة. وكذلك التأكيد بالقسم وغير ذلك ممّا أكّدوا به))[٢].

ظهر التوكيد بشكل واضح في نصوص السرد الوصفي القرآني، وكانت الكثرة الكاثرة من هذه النصوص تفتتح بحرف التوكيد (إنّ) ممّا شكّل ظاهرة أسلوبية مهيمنة نحو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) [٣] وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً) [٤] وقوله: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ) [٥]. ولم يقتصر ظهور (إنّ) في بداية النصوص، بل تكرر في كثير منها؛ زيادة في توكيدها وتقرير مضامينها. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [٦] وقوله: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ × ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[٧] ففي الآية الأولى يؤكد الباري ترغيبه المؤمنين بإدخالهم في جنات الخلد، ثمّ يؤكد قدرته على فعل ما يشاء زيادةً في ترغيبهم، ويؤكد في النص الثاني ترهيبه من تولى وكفر بأنّ مرجعه إليه تعالى مهما طال به العمر، وحسابه عليه، وليس على غيره؛ إمعاناً في إشاعة جوٍ من الترهيب المخيف.

لم يقتصر التوكيد على (إنّ) المكسورة الهمزة، بل كانت تعاضدها (أنّ)المفتوحة الهمزة، وكذلك المخففة؛ وذلك لزيادة قوة التوكيد نحو قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً × وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) [٨]، وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ × دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [٩]، إذ اشتركت (إنّ) و(أنّ) في توكيد النص الأول، واشتركت (إنّ) و(أنْ) في توكيد النص الثاني. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الحرف يأتي على أربعة أوجه: ((التشديد والتخفيف وكسر الهمزة وفتحها، فيترتب على الوجهين الأول والثاني اقتضاء تركيبي لا يقتضيه أي من الوجهين الآخرين، ولكنّها في الأوجه الأربعة تفيد معنًى واحداً هو التوكيد.

تدخل هذه الأداة على الجملة المكوّنة من المبتدأ والخبر في إطار من أطر الجملة التوليدية، فيجري في المبتدأ تغيير في الحركة على آخره تسمّى حركة اقتضاء وظيفتها إقامة خط سلامة المبنى، ولا دور لها في المستوى الدلالي وإنّما الدور للأداة نفسها، إذ إنّها تنقل الجملة من جملة خبرية من الضرب الأول إلى جملة خبرية تلقى على سمع من هو على درجة من التردد في تقبل الخبر))[١٠].

من البنى التوكيدية المهيمنة على نصوص السرد الوصفي القرآني التوكيد بضمير الفصل، فقد جاء هذا التوكيد في القرآن الكريم بوساطة عدد من الضمائر منها ضمير الفصل للمذكر الغائب (هو)، وضمير الفصل للمؤنثة الغائبة (هي)، وضمير الفصل لجمع المذكر الغائب (هم) وضمير الفصل للمتكلم (أنا)، وضمير الفصل لجماعة المتكلمين (نحن)، وضمير الفصل للمفرد المخاطب (أنت)، ولمّا كنا قد أشرنا فيما سبق إلى أنّ من خصوصيات نصوص السرد الوصفي القرآني وصف قدرة الله تعالى ووصف حال المؤمنين والكفار وعامة الناس والأشياء بضمير الغائب، فإنّنا سوف نركز دراستنا للتوكيد بضمائر الفصل على الأنواع الثلاثة الأولى من الضمائر المارة الذكر وهي: (هو) و(هي) و(هم)، فيما سنترك الأنواع الأخرى؛ لأنّها لا تدخل في صلب موضوع بحثنا.

من الآيات التي أكّدت بضمير الفصل (هو) قوله تعالى في ترغيب المؤمنين: (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا

(١) الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ٢/ ١٩ ـ ٢٠.

(٢) نظرية المعنى في الدراسات النحوية، الدكتور كريم حسين ناصح، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، ٣٧٨.

(٣) آل عمران ٥.

(٤) آل عمران ١١٦.

(٥) الإسراء ٩.

(٦) الحج ١٤.

(٧) الغاشية ٢٥ ـ ٢٦.

(٨) الإسراء ٩ ـ ١٠.

(٩) يونس ٩ ـ ١٠.

(١٠) أسلوب التوكيد اللغوي في منهج وصفي في التحليل اللغوي، الدكتور خليل أحمد عمايرة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ١٣.

تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [١]، فقد أكد الخالق عظمة فوز هؤلاء المؤمنين بوساطة الضمير (هو). وفي آية أخرى يقول تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [٢]، فقد تكرر الضمير (هو) ثلاث مرات، وبذلك حمل جانباً دلالياً متنوعاً، وتوكيداً متكرراً، كان القصد منه في المرّة الأولى تأكيد أنّ الله تعالى هو الخالق الحق الأوحد، على حين كان القصد في الثانية هو ان كلّ إله غيره يدعوه الناس هو الباطل، فيما كان القصد في المرة الثالثة بأنّ الله مختص بالعلو فهو العلي الكبير الذي لا يعلوه عالٍ ولا يكبره كبير.

ورد التوكيد بضمير الفصل للمؤنثة الغائبة (هي) في ثماني آيات وكانت حصة السرد الوصفي القرآني منها آيتان فقط هما قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى × وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا × فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى × وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى × فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [٣]، فقد ورد الضمير الأول في مقام الترهيب إذ أكّد أنّ الجحيم هي نهاية كل طاغ يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة، وورد الضمير الثاني في مقام التّرغيب، إذ أكّد أنّ الجنة هي جزاء كلّ من خاف ربّه، وكبح جماح نفسه الأمّارة بالسوء ونهاها عن هواها وشهواتها.

كان التوكيد بضمير الفصل (هم) هو الأكثر وروداً في القرآن الكريم [٤] وفي بنى السرد الوصفي القرآني، فنراه يقوم بوظيفته في تأكيد مضامين الآيات القرآنية التي يتمظهر فيها، فقد ورد في سبعين آية في عموم القرآن الكريم، وكان نصيب آيات السرد الوصفي القرآني منها اثنتين وأربعين آية تمحورت كلّها حول المستوى الأول من مستويات السرد الوصفي، وهو الترغيب والترهيب ممّا شكّل ظاهرة أسلوبية مهمة في نصوص هذا المستوى. قال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ × إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ × وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [٥]، فقد قام الضمير (هم) بتأكيد ظلم الكافرين المعرضين عن الله ورسوله في الآية الأولى، فيما كانت وظيفته في الآيتين التاليتين تأكيد فلاح المؤمنين الذين يطيعون الله ورسوله باتباع أوامرهما واجتناب نواهيهما ونجاحهم وفوزهم.

ثمّة بنية توكيدية أخرى ظهرت بشكل واضح في نصوص المستوى الثاني من مستويات السرد الوصفي القرآني (وصف قدرة الله تعالى وآياته في الكون)، فقد أسلفنا الحديث بأنّ واحدةً من خصوصيات هذا المستوى هي وصف آيات الله في الكون في نصوص تنتهي على شاكلة قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ).

احتوت هذه النصوص على (إنّ) ولام التوكيد، وكان قصد الخالق تعالى من وجود مؤكدين في هذه النصوص هو زيادة التأكيد، وتقرير آيات الله تعالى وإظهارها أمام الناس علّهم لا ينكرونها ويؤمنون بوساطة مشاهدتهم ومعايشتهم لها فهي دلائل واضحة على حكمة الخالق وقدرته في تسيير هذا الكون، وبالتالي فإنّ رباً هذه هي آياته يستحق من الناس عبادته وتقديسه وشكر آلائه عليهم. قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ × إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) [٦]. (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [٧].

من أساليب التوكيد المهمّة التوكيد بالمصدر (المفعول المطلق)، فقد ظهر هذا النوع على امتداد القرآن الكريم، إلا أنّ ظهوره في بنى السرد الوصفي القرآني كان يحمل نوعاً من الخصوصية، وبالتالي يشكّل منبهاً أسلوبياً مهماً، فقد جذب انتباهي أن التوكيد بالمصدر يأتي متساوقاً بجمل متتابعة لمرتين أو ثلاث مرات في الغالب، إذ يؤكد الفعل الأول بمصدره، ويؤكد الفعل الثاني بمصدره، وهكذا

(١) يونس ٦٤.

(٢) الحج ٦٢.

(٣) النازعات ٣٧ ـ ٤١.

(٤) ينظر: أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطّردي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط١، ١٩٨٦، ٣٤٨.

(٥) النور ٥٠ ـ ٥٢.

(٦) الشعراء ٧ ـ ٨.

(٧) النحل ٧٩.

تتتابع الجمل المؤكدة واحدة تلو الأخرى، والهدف من ذلك كلّه إفهام المتلقي وتقرير المعنى في ذهنه.

ثمّة سمة أخرى لهذا النوع من التوكيد، وهي أنّ أغلب نصوصه قد تجلّت في المستوى الثالث من مستويات السرد الوصفي القرآني (وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده). ولعلّ هذا المستوى يحتاج إلى التوكيد بشكل مستمر؛ لأنّه يصف أشياء لم يألفها الانسان ولم يرَها في حياته، كما أنّه يشكّل استباقاً لأحداث يوم القيامة. قال تعالى: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً × وَتَسيرُ الْجِبَالُ سَيْراً × فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ × يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً) (١).

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً × وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً) (٢).

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً) (٣).

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ × وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً) (٤).

من السمات الأسلوبية المهمة في بعض النصوص التي يرد فيها التوكيد، سمة التوكيد المتراكم والمتصاعد بشكل تدريجي، وصولاً إلى إثبات القضايا المهمة والكبرى وتوكيدها. ومن ذلك قوله تعالى: (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً × فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً × فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً × فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً × فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً × إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ × وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ × وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)(٥) وإذا ما رسمنا هذه الجمل التوكيدية المتتابعة في دالّة رياضية تصاعدية فإنّ القصد من هذا التوكيد التصاعدي سيتضح أكثر فأكثر.

المتغيّر
الأثر الفني
وإنّه لحبّ الخير لشديد ٨
وإنّه على ذلك لشهيد ٧
إنّ الانسان لربه لكنود ٦
فوسطن به جمعا ٥
فأثرن به نقعاً ٤
فالمغيرات صبحاً ٣
فالموريات قدحاً ٢
والعاديات ضبحا ١
الثابت
الأثر الفكري

(١) الطور ٩ ـ ١٣.
(٢) الواقعة ٤ ـ ٥.
(٣) الطلاق ٨.
(٤) الحاقة ١٣ ـ ١٤.
(٥) العاديات ١ ـ ٨.

التوكيد التصاعدي المتدرّج

حمل هذا التوكيد التصاعدي المتدرّج مقاصد عدّة ودلالات، فلم يكن هدفه مجرد سرد حال الإنسان ووصفه، وإنما كان الهدف منه هو توليد الضغط النفسي المتصاعد على المتلقي، وترسيخ المعنى في الأذهان وتأكيده؛ لأنّ الأثر النفسي يزداد كلّما ازداد عدد المؤكدات التي تمارس ضغطاً على فهم المتلقي؛ إيحاءً بأهمية الموضوع المراد الحديث عنه وثبوته وقوته، وأنّ هذه التوكيدات المتعددة بالقسم وبتكرار الحرف المشبّه بالفعل (إنّ) ثلاث مرات، وبتكرار (لام التوكيد) ثلاث مرات قامت بعملية احتجاج وبرهنة على قدرة الباري ومعرفته الدقيقة لخبايا هذا الإنسان، واستبطانه لخفايا نفسه الجاحدة، والشاهدة على جحودها، فهو تعالى خالق هذا الكائن وهو العالم بكل صغيرة وكبيرة عنه.

٢ـ الشرط

معنى الشرط ((أن يقع الشيء لوقوع غيره، أي يتوقف الثاني على الأول. فإذا وقع الأول وقع الثاني))(٦). وهو من الأساليب المهمة التي أسهمت في تشكيل تراكيب بنى السرد الوصفي القرآني، وقد كان من أهدافه قيام الحجة على الناس، والبرهنة عليها بوساطة معاني أدواته الجازمة وغير الجازمة، التي تنوّعت مداليلها وقامت بدورها الحيوي في التأثير في المتلقي والإسهام في إفهامه ومن ثمّ إقناعه بحقيقة ما يرد في النص وأهميته عن طريق فاعليتها والسياق الذي ترد فيه ضمن الآية، والآية ضمن السورة، لذلك فإنّنا نرى بأنّه لا يجوز التوهم بأنّ عنصراً ما يمكن تعويضه بعنصر آخر على سبيل الافتراض النحوي، فموقع كل عنصر ووظيفته مقدر قصدياً من مبدع النص. ومن هذه العناصر والأدوات، أدوات الشرط التي نحن بصدد دراستها.

فضلاً عمّا تقدم فإنّ الشرط يمثل قيمتين دلاليتين مهمتين، أولاهما هي القدرة على ربط جملتين مع بعضهما، ويرتبط هذا الأمر مع قيمة تنوّع الزمن في هذه الجمل المترابطة. وثانيهما هي أنّ التركيب الشرطي يرتبط، نتيجة المشروط عليه، بهدف الشارط وقصده، فإن تحقق الهدف تحققت الغاية والنتيجة المتوخاة(٧)

امتازت نصوص السرد الوصفي القرآني بظهور عدد من أدوات الشرط دون غيرها، وقد ظهرت حسب كثرتها كالآتي:

١ـ مَنْ: وكانت من أكثر أدوات الشرط وروداً، فقد ظهرت في مائة وعشرة مواضع.

٢ـ إذا: إذ وردت في ثمانية وتسعين موضعاً.

٣ـ لو: وردت في أربعة وثلاثين موضعاً.

(٦) معاني النحو، الدكتور فاضل السامرائي، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة بغداد، بغداد، ١٩٩١، ٤/ ٤٣٢.
(٧) ينظر: تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف، الدكتور حسن عبد الهادي الدجيلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٥، ٩٩.

٤ـ أمّا: وردت في ثلاثين موضعاً.

٥ـ إنْ: وردت في خمسة وعشرين موضعاً.

٦ـ لولا: مرة واحدة.

٧ـ أينما: مرة واحدة.

٨ـ ما: مرة واحدة.

يتبين لنا من الإحصائية التي قمنا بها حول أدوات الشرط في نصوص السرد الوصفي القرآني أنّ ثمّة أدوات لم تظهر في هذه النصوص على حين نجدها قد ظهرت في النصوص الأخرى من الكتاب العزيز، ومن هذه الأدوات: (أي) و(حيثما). كما يتبين لنا أنّ أداة الشرط الجازمة (مَنْ) والتي تكون شرطاً للعاقل كانت أكثر الأدوات حضوراً، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّها ترد في مقام وصف أحوال المؤمنين والكافرين في نصوص الترغيب والترهيب، ممّا شكّل ظاهرة أسلوبية مميّزة، إذ ظهرت هذه الأداة في الأعمّ الأغلب في نصوص المستوى الأول من نصوص السرد الوصفي القرآني. ومن ذلك قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُون) (١)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (٢)

من جانب آخر فقد رأينا ظاهرة أسلوبية أخرى تتجلى في أكثر النصوص التي وردت فيها (مَنْ) الشرطية، الا وهي تكرار أداة الشرط مرتين في جملتين متتابعتين غالباً ما يكون غرض الأولى ترغيب المؤمنين ويكون غرض الثانية ترهيب الكافرين، ولعلّ قصد مبدع النص القرآني ـ فيما نرى والله أعلم ـ هو عقد مقارنة أمام المتلقي، وتصوير هذه المقارنة في صورتين متقابلتين بوساطة الجمل الشرطية المتتابعة؛ ليتسنى لقارئ القرآن وسامعه التأمل في الصور القرآنية، وتمييز جانب الخير من جانب الشر، وبالتالي ليختار طريق الخير، ويترك طريق الكفر والشر. قال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ × وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (٣)

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) (٤)

جاء ورود أداة الشرط غير الجازمة (إذا) بالمرتبة الثانية من حيث الكثرة، والأصل فيها أن تدخل على المتيقن وقوعه أو الكثير الوقوع (٥)

فمن المتيقن وقوعه قوله تعالى:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) (٦)

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ × لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) (٧)

ومن الكثير الوقوع قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (٨)

ظهرت (إذا) في الكثير من نصوص المستوى الثالث (وصف أحوال يوم القيامة ومشاهده)، وقد أسهمت في تصوير المشهد الأخروي، وامتازت بأنّها جزّأت هذا المشهد البانورامي الواسع في مشاهد متعددة ومتساوقة مع بعضها، فكل مشهد من هذه المشاهد يصوّر حدثاً من أحداث ذلك اليوم الموعود، ومن اجتماع هذه المشاهد يتكون المشهد الرئيس الذي يصف أحداث يوم القيامة كما أنّ دخولها في نسيج هذه النصوص حوّل زمنها الماضي إلى مستقبل، وبالتالي فإنّ واحدة من وظائفها هي تحقيق الاستباق

(١) القصص ٨٤.
(٢) الشورى ٢٠.

(٣) النساء ١٣ ـ ١٤.
(٤) الأنعام ١٢٥.
(٥) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث للنشر والتوزيع القاهرة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، ١/ ١٥٢، وينظر: معاني النحو ٤/ ٤٥٠.
(٦) المؤمنون ١٠١.
(٧) الواقعة ١ ـ ٢.
(٨) الأنفال ٢.

الزمني للمشهد الأخروي، وكذلك فإنّها تأتي للأمور المحققة التي تأتي بغتةً إمعاناً في الترهيب. قال تعالى:

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ × وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ × وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ × وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ × عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (١). فقد تكررت أداة الشرط أربع مرات، وتعددت أفعال الشرط وبلغت أربعة أفعال، فيما كان جوابها واحداً؛ لأنّ الانفطار والانتثار والتفجّر والتبعثر تحدث في وقت واحد، وحينما تحدث سوف يتحقق جواب الشرط وهو علم الانسان بما قدّم وأخّر.

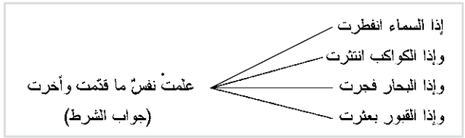

في مطلع سورة التكوير تتكرر (إذا) اثنتي عشرة مرة؛ لتسهم في وصف اثني عشر حدثاً من أحداث يوم القيامة، وكل حدث يمثل جزءاً من الحدث العام، وهو يوم القيامة، وبذلك تؤدي دورها في بيان الرؤية الشمولية لذلك اليوم وتصوير أحداثه للناس؛ لكي لا يفاجأوا به ولا يخافوا منه. قال تعالى:

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ × وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ × وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ × وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ × وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ × وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ × وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ × وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ × بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ × وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ × وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ × وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ × وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ × عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (٢)

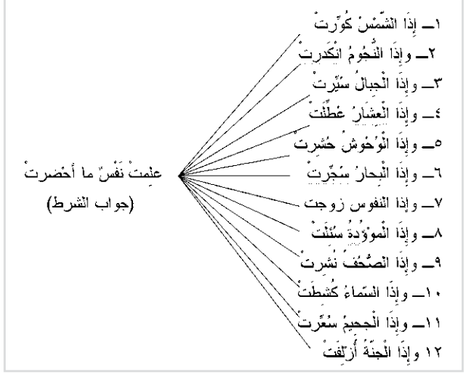

(١) الانفطار ١ ـ ٥.
(٢) التكوير ١ ـ ١٤.

إنّ استكناه تركيب هذه الايات يظهر لنا أنّ أداة الشرط قامت، فضلاً عمّا تقدّم، بدور محوري في إظهار الوصف البرهاني الاحتجاجي الذي يحتج الله به على عباده، فهو يصف أحداث يوم القيامة، ويحتج بها عليهم عند وقوفهم بين يديه لمحاسبتهم، وعند حضور أعمالهم كاملة، فالآيات تبيّن بعد هذا الحشد من جمل الشرط مسألة في غاية الأهمية والدقة هي مسألة تجسيم الأعمال يوم القيامة، ((فأعمالنا التي نتصورها قد انتهت وفنيت في عالمنا الدنيوي، هي ليست كذلك، فكل عمل قمنا به سيتجسم بصورة ما؛ ليحضر أمام أعيننا في عرصة المحشر الرهيبة))(٣).

إنّ تكرار أداة الشرط اثنتي عشرة مرة أدى إلى تعدد أفعال الشرط بحيث بلغت اثني عشر فعلاً، في حين أنّ جوابها كان واحداً ولعلّ من أسباب ذلك ـ فيما نرى والله أعلم ـ أنّ هذه الأحداث تجري بشكل سريع ومتتابع، وفي وقت واحد وكلّها تمهد لحدث واحد، وهو ما تجسّد في جواب الشرط: ((علمت نفس ما أحضرتْ))، فهذه النفس تقف أمام خالقها للحساب في ذلك اليوم بعد سلسلة من الأحداث المهولة التي تحدث وتغير وضع الكون بأجمعه.

تأتي أداة الشرط (لو) وهي تحمل عدّة دلالات فقد تكون امتناعية ((وتسمى حرف امتناع لامتناع، ومعناه امتناع وقوع الجزاء لامتناع الشرط))(٤). ومن ذلك قوله تعالى:

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) (٥)، فقد دلّت أداة الشرط (لو) على استحالة اصطفاء الخالق تعالى ولداً؛ لاستحالة إرادته هذا الأمر.

وقد تكون (لو) شرطية غير امتناعية نحو قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٦) حيث دلّت (لو) على عدم نفاد كلمات الله حتى لو كان شجر الأرض أقلاماً والبحر مداداً، ويمدّه سبعة أبحر مثله، فكُتب بتلك الأقلام والبحور، وتكسّرت تلك الأقلام ونفد ماء البحور (٧)

من الدلالات الأخرى لأداة الشرط (لو) التمني، وذلك نحو قوله تعالى:

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً) (٨). ففي الآية الكريمة دلالة واضحة على تمني نفس الإنسان، عن طريق أداة الشرط (لو)، بأن

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٩/ ٤٠٢.
(٤) معاني النحو ٤/ ٤٦٧.
(٥) الزمر ٤.
(٦) لقمان ٢٧.
(٧) ينظر: مجمع البيان ٤/ ٣٢١.
(٨) آل عمران ٣٠.

يكون بينها وبين عمل السوء الذي عملته في دار الدنيا بون شاسع؛ للتخلص منه ولتنجو من عذاب يوم القيامة. وفي الآية دلالة على ندم هذه النفس وتحسرها على أعمال السوء التي اقترفتها.

إنّ دلالة الندم والتحسر هذه غالباً ما تظهر مع (لو) في نصوص السرد الوصفي القرآني؛ لتعبر عن مدى الندم والحسرة التي يشعر بها من أضاع آخرته بدنياه. قال تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (١)

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (٢)

كانت وظيفة أداة الشرط (أما) في أغلب نصوص السرد الوصفي القرآني هي الشرط والتفصيل، فقد فصّلت معاني الجمل الداخلة عليها تفصيلاً يساعد على فهم معنى الآيات الكريمة. وعند استقرائنا النصوص التي وردت فيها وجدنا أنّها تقوم بوظيفة أخرى لا تقل أهمية عن وظيفتها الرئيسة، هي وظيفة المقارنة في الوصف بين حال المؤمنين وحال الكافرين. إذ كانت ترد في جملتين متتابعتين بينهما تقابل في المعنى، ترغب إحداهما المؤمنين، وترهب الثانية الكافرين، أو بالعكس؛ لذلك اقتصر وجودها في نصوص الترغيب والترهيب (٣)؛ ولأنّ هذه النصوص تكون متتابعة بعضها إثر البعض الآخر، ولا نكاد نرى ترغيباً حتى نجد بعده ترهيباً أو بالعكس، فإنّ (أمّا) تسهم في تصوير صورٍ متقابلة في غاية الروعة تبعث في المتلقي حافزاً على تأملها، وعقد مقارنة بينها من أجل السير به قدماً إلى اختيار طريق الهداية الذي اختطه القرآن الكريم للناس جميعاً، فهي تعرض عليه خيارين وطريقين. أمّا طريق الجنة أو طريق جهنم. قال تعالى:

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ × وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) (٤)

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى × وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا × فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى × وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى × فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (٥)

٣ـ النفي:

يعدّ النفي من أقسام الخبر المهمة، وفي ذلك يقول السيوطي: ((من أقسام الخبر النفي، بل هو شطر الكلام كلّه))(٦). فقد وصف النفي بـ(شطر الكلام كلّه)، والشطر في اللغة هو نصف الشيء، وفي ذلك دلالة على أهمية هذا الأسلوب، وكثرة وروده في لغة العرب، بشكل عام، وفي القرآن الكريم بشكل خاص، وفي نصوص السرد الوصفي القرآني بشكل أخص.

ظهر النفي بشكل واسع في نصوص السرد الوصفي القرآني، إذ كان هذا الأسلوب من الأساليب المهيمنة في تراكيب السرد الوصفي، وإنّ نظرة فاحصة إلى أدواته المتمظهرة في هذه التراكيب، وعددها لكفيل بأن يُؤكد ما نقول، فقد ظهرت هذه الأدوات حسب كثرتها كالآتي:

١ـ لا ظهرت بنوعيها الرئيسين

أ ـ لا المشبهة بـ(ليس) غير العاملة؛ ولكثرتها لم يمكننا إحصاؤها بشكل دقيق.

ب ـ لا النافية للجنس ((وهي تفيد التنصيص على نفي الجنس، وهي آكد من العاملة عمل ليس أو المهملة))(٧). وقد وردت في خمسة وثلاثين موضعاً.

٢ـ ما ظهرت في ستة وسبعين موضعاً.

٣ـ لم ظهرت في واحد وستين موضعاً.

٤ـ ليس ظهرت في واحد وعشرين موضعاً.

(١) البقرة ١٦٥.
(٢) البقرة ١٦٧.
(٣) نستثني من ذلك قوله تعالى: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ × وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) الفجر ١٥ ـ ١٦. فقد وردت في وصف حال الإنسان.

(٤) السجدة ١٩ ـ ٢٠.
(٥) النازعات ٣٧ ـ ٤١.
(٦) معترك الأقران ١/ ٤٢٥.
(٧) معاني النحو ٤/ ٥٨٠.

٥ـ غير ظهرت في خمسة عشر موضعاً.
٦ـ إنْ ظهرت في أربعة عشر موضعاً.
٧ـ لَنْ ظهرت في أربعة عشر موضعاً.
٨ـ لات مرة واحدة.
٩ـ لمّا مرة واحدة.

قامت (لا) بنفي الفعل المضارع أكثر من قيامها بنفي الاسم، وفي ذلك دلالة على كون الحدث هو القابل للتغيّر [١] مع استمرار الزمن، وقد كثر وجودها في نصوص الترهيب؛ لبيان عاقبة الكافرين السيئة التي سيلقونها يوم القيامة إن هم بقوا على كفرهم وعنادهم.

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [٢]. ففي الآية الكريمة نفي بـ(لا) للأفعال المضارعة (يكلمهم، ينظر، يزكيهم)، أفاد الاستقبال؛ لأنّ الأفعال المضارعة أشارت إلى المستقبل، فضلاً عن دلالتها على التجدد والحدوث [٣] والاستمرار. فالباري لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم بشكل مستمر مع استمرار عذابهم في جهنم، وفي ذلك خسارة ما بعدها خسارة.

فضلاً عن دخولها في نصوص الترهيب، فقد دخلت (لا) النافية للفعل المضارع في نصوص الترغيب، وفي نصوص وصف قدرة الله وآياته، والتشريع [٤] ووصف القرآن الكريم [٥]. قال تعالى في وصف قدرته: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [٦]. فقد أظهرت (لا) النافية قدرة الباري وعظمته من خلال عدم إدراك أبصار الناس له، فهو الذي يرى ولا يُرى سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

من الوظائف المهمة التي قامت بها (لا) النافية هي وظيفة الاحتجاج على الناس عن طريق دخول همزة الاستفهام عليها. إن الخالق أراد أن يحتج بقدرته على عباده؛ علّهم يؤمنون به، ويشكرون نعمته تعالى، وقد استخدم في احتجاجه هذا أسلوبي الاستفهام والنفي؛ ليكون الاحتجاج أشد وقعاً على المتلقي، وليحقق هدفه من التأثير فيه من خلال استنهاض مشاعره وأحاسيسه، ثم بعثه على التفكّر في قدرة الله تعالى وآياته، ومن ثمّ جلبه إلى حضيرة الإيمان. قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) [٧]

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ) [٨]

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) [٩]

دخلت (لا) النافية على الاسم، وفي مثل هذه الحالة يجب اهمالها وتكرارها؛ من أجل اشراك أكثر من طرف في النفي كما يقول النحويون [١٠]

ومثاله قوله تعالى:

(لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [١١].

وقد تُكرر (لا) من أجل تأكيد النفي، إذ استخدمت في نصوص الترغيب في قوله تعالى: (لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)؛ للتأكيد على عاقبة المؤمنين الحسنة في الدار الآخرة، وللتأكيد على أنّ من آمن بالله وعمل صالحاً ((ينبغي أن لا يخاف من غيره ولا يحزن لما فات عنه؛ لأنّ متابعة العبد لهداية الله تعالى توجب انقطاعه إليه، وهو يستلزم نفي الحزن والخوف عنه في الدارين))[١٢]، كذلك فإنّ الصالحين لا يلحقهم خوف من أهوال يوم القيامة من العذاب الشديد ولا يصيبهم حزن على فوات الثواب وعلى غيره من الأمور [١٣]، بل هم فرحون بما أعدّ الله لهم من نعيم. إنّ تكرار هذا التركيب في نصوص السرد الوصفي القرآني، وفي نصوص الترغيب بشكل خاص إحدى عشرة مرة شكّل ظاهرة أسلوبية × كان هدفها ترغيب المؤمنين، وحثّهم على الأعمال الصالحة؛ لكيلا يواجهوا الخوف والحزن يوم الفزع الأكبر. قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [١٤]

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [١٥]

ظهرت (لا) النافية للجنس في نصوص السرد الوصفي القرآني وكان ظهورها في أغلب هذه النصوص بوساطة تراكيب معينة.

(١) ينظر: أساليب النفي في العربية ـ دراسة وصفية تاريخية، مصطفى النحاس، مؤسسة علي جراح الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٩، ٣٧.
(٢) آل عمران ٧٧.
(٣) ينظر: التعبير القرآني ٣٠.
(٤) ينظر: البقرة ٢٢٨، النور ٦٠.
(٥) ينظر: فصلت ٤٢.
(٦) الأنعام ١٠٣.
(٧) الأنبياء ٣٠.
(٨) يس ٣٥.
(٩) الغاشية ١٧، وينظر: محمد ٢٤، العاديات ٩.
(١٠) ينظر: معاني النحو ٤/ ٥٨٠.
(١١) يس ٤٠.
(١٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١/ ٢١٥.
(١٣) ينظر: مجمع البيان ١/ ٩٠.
(١٤) البقرة ٢٧٤.
(١٥) يونس ٦٢، وينظر: البقرة ٣٨، ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٧، آل عمران ١٧٠، المائدة ٦٩، الأنعام ٤٨، الأحقاف ١٣.

فقد وردت في نصوص وصف قدرة الله وآياته في قوله تعالى: (لا إله إلاّ هو) وكان القصد منها قصر الألوهية عليه جلّ شأنه ونفيها عن غيره. قال تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [١].

ووردت (لا) النافية للجنس في نصوص وصف يوم القيامة ووصف القرآن الكريم في قوله تعالى: (لا ريب)؛ لتنفي الشك في يوم القيامة وفي القرآن الكريم قال تعالى:

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [٢]. وقال:(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [٣].

ووجدت (لا) النافية للجنس في نصوص الترهيب في قوله تعالى: (لا جرم)، ومعناها كما قال الفراء: ((لا جرمَ في الأصل بمعنى لا بُدَّ ولا محالة ثم كثرت فحوّلت إلى معنى القَسَم وصارت بمعنى (حقّاً)؛ ولهذا تجاب باللام نحو: لا جَرَم لأفعلن كذا. وقد ذكروا أنّ جَرَم بفتحتين بمعنى القطع))[٤]، وبذلك يكون القصد منها التأكيد والقطع بمصير الكافرين، وهو جهنّم وبئس المصير: قال تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) [٥].

وظهرت (لا) النافية للجنس في نصوص التشريع في قوله تعالى: (لا جُناح)، والجناح هو ((الميل عن الحقّ والعدل، ويراد به الإثم، فيؤول نفي الجناح إلى التجويز))[٦]، وهذا ما يفسر مجيء هذا التركيب في نصوص التشريع فقط، إذ كان هدفه تجويز العبادات والمعاملات للناس. قال تعالى:

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) [٧].

إنّ ما تقدم الكلام فيه عن (لا) النافية للجنس يمثل بعضاً من الظواهر الأسلوبية التي تظهرت في أسلوب النفي بوساطتها في تراكيب السرد الوصفي القرآني. وقد حملت هذه الظواهر دلالات ومعاني خاصة تجلّت مع كلّ تركيب من التراكيب التي دخلت عليها. وهذا يؤكد ما نذهب إليه من أنّ النص القرآني قابل للإنتاج الدلالي المستمر مع استمرار الزمن.

تنفي (ما) الجمل الاسمية والفعلية، وهي آكدُ من (ليس) وأكثر استعمالاً منها فـ(ليس) مختصة بنفي الجمل الاسمية فقط [٨]، ولعل هذا الأمر هو ما يفسّر وجودها في القرآن الكريم، وفي نصوص السرد الوصفي القرآني بشكل أكبر من وجود (ليس).

قلنا إن (ما) ظهرت في ستة وسبعين موضعاً في نصوص السرد الوصفي القرآني، وقد دخلت على الفعل في تسعة وأربعين موضعاً، فيما دخلت على الاسم في سبعة وعشرين موضعاً، وفي ذلك دلالة على أهميتها ودورها في تصوير الأحداث، فقد أسهمت في تصوير نوعين من الحدث، احدهما الماضي البعيد، وثانيهما هو الحدث المستقبلي. ومن أمثلة نفيها الماضي قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) [٩].

ومن أمثلة نفيها للمستقبل قوله تعالى:

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)[١٠].

تأتي (لم) لتنفي الفعل المضارع وتجزمه وتقلب زمنه إلى الماضي، وقد يكون النفي بها منقطعاً، أي انتفى حدوث الفعل في

(١) آل عمران ١٨، وينظر: البقرة ٢٥٥، طه ٨، المؤمنون ١١٦، غافر ٣، الحشر ٢٢ ٢٣، التغابن ١٣.
(٢) الحج ٧، وينظر: آل عمران ٢٥، الإسراء ٩٩، غافر ٥٩.
(٣) يونس ٣٧، وينظر: البقرة ٢، السجدة ٢.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ١٠/ ١٩٧.
(٥) النحل ٦٢، وينظر: هود ٢٢، النحل ٢٣، النحل ١٠٩.
(٦) تفسير الحبري، أبو عبد الله الكوفي الحسين بن الحكم بن مسلم الحبري، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ١/ ٣٩٠.
(٧) البقرة ٢٣٠، وينظر: البقرة ١٥٨، ٢٣٣، النساء ١٢٨، المائدة ٩٣، النور ٦٠، الأحزاب ٥٥.
(٨) ينظر: معاني النحو ٤/ ٥٦٨.
(٩) إبراهيم ٤.
(١٠) لقمان ٣٤.

وقتٍ ما ثمّ انقطع النفي [١] وانتهى، وكان ظهور هذا النوع من النفي قليلاً في تراكيب السرد الوصفي القرآني، ومنه قوله تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً) [٢]

ثمّة نوع آخر من النفي بـ(لم)، وهو ما كان مستمراً مع الدهر لا انقطاع فيه، وقد ظهر هذا النوع في نصوص وصف قدرة الله وآياته؛ للبرهنة على قدرة الخالق العظيم عن طريق نفي الصفات السلبية (الجلالية) عنه ومثال ذلك قوله تعالى: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) [٣] (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ × وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) [٤].

من البنيات الأسلوبية المهمة التي تظهرت في نصوص السرد الوصفي القرآني هي دخول همزة الاستفهام على (لم)؛ بقصد تقرير الحقائق، وتوبيخ المعاندين، وإقامة الحجة عليهم؛ لكيلا يبقوا على عنادهم وجحودهم، ولعلّ هذا القصد هو ما يفسّر ظهور هذه البنية في نصوص وصف قدرة الله وآياته في الكون بالدرجة الأولى، وفي نصوص الترهيب بالدرجة الثانية. إن الله تعالى أراد الاحتجاج على الناس بشكل عام، وعلى المعاندين بشكل خاص؛ لذلك جاء بهذه الصيغة في هذين المستويين من مستويات السرد الوصفي القرآني؛ لأنّ الانسان إن لم يتّعظ ويعتبر بآيات الله الباهرة في الكون، وبالترهيب بالعذاب في يوم القيامة. فبأي شيء سيتعظ ويعتبر؟ قال تعالى في وصف قدرته وآياته:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [٥]

وقال في الترهيب:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) [٦].

ترد (إنْ) النافية في القرآن الكريم ((وهي آكد من (ما) يدل على ذلك اقترانها الكثير بـ(إلاّ) وهذا يعطيها قوة وتأكيداً فإن في القصر قوة)) [٧]. إن ورود (إنْ) النافية مع (إلاّ) يأتي في الغالب لإثبات القضايا المهمة والكبرى؛ لأنّها بقوة نفيها، وبدخول القصر معها في نفس التركيب تُشحن بدلالة جديدة ومهمة في الوقت عينه هي دلالة التوكيد، فالأداة لا تستخدم استخداماً اعتباطياً في القرآن الكريم، وإنّما تستخدم بشكل قصدي يحقق هدف الباري جلّ شأنه، وقد كان هدفه من هذا التركيب هو إثبات القضايا المهمة والتأكيد عليها؛ لكي ينتبه الناس إليها ويهتموا بها، لذلك كان ظهورها في نصوص السرد الوصفي القرآني في ثلاثة مستويات فقط هي الترهيب ووصف يوم القيامة ووصف قدرة الله وآياته في الكون. ومن الأمور المهمة التي يثبتها الخالق تعالى قوله:

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) [٨]

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) [٩]

تدخل (لَن) على الفعل المضارع فتخلصه للاستقبال وتنفيه نفياً مؤكداً، وقد امتازت في نصوص السرد الوصفي بميزتين، إحداهما إنّ نفيها كان دائماً للمستقبل البعيد بل المتطاول في البعد، وثانيهما إنّها جاءت في الغالب في نصوص الترهيب، فقد أسلفنا الحديث بأنها وردت في أربعة عشر نصاً، كان اثنا عشر منها للترهيب، واثنان فقط للترغيب، ولعلّ سبب هذه الظاهرة الأسلوبية ـ فيما نرى والله أعلم ـ هو أن الله تعالى نفى نفياً مؤكداً وقاطعاً أن تُقبل أعمال وتوبة الكافرين والمعاندين الذين ورد ذكرهم في بعض هذه النصوص الاثني عشر المنفية؛ لذلك استعمل (لن) ولم يستعمل غيرها من أدوات النفي؛ لأنّها تحقق القصد الإلهي، ويؤكد ما نذهب إليه مضمون بعض هذه الآيات القرآنية إذ يقول تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [١٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ × إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ) [١١]

ونفى في آيات أخرى أن تغني عن هؤلاء الكافرين أموالهم أو أولادهم من الله شيئاً [١٢]، ونفى أن يضرّوا الله شيئاً [١٣]؛ لذلك استخدم (لن) ليؤكد تحقق هذه الأمور.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الإتقان في علوم القرآن : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ط، د.ت .

الأدب وفنونه : عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، د.ت .

أساس البلاغة : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار صادر بيروت، د.ط، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

أساليب الاستفهام في القرآن الكريم، عبد العليم السيد فودة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مؤسسة دار الشعب، د.ط، د.ت .

أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطّردي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

أساليب النفي في العربية ـ دراسة وصفية تاريخية، مصطفى النحاس، مؤسسة على جراح الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، د.ط، ١٩٧٩.

استرداد المعنى ـ دراسة في أدب الحداثة، عبد العزيز ابراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦.

أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق : محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، د.ت .

أسرار التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم، الدكتور شلتاغ عبود، دار الرسول الأكرم ودار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م .

أسلوب التوكيد اللغوي في منهج وصفي في التحليل اللغوي، الدكتور خليل أحمد عمايرة، سلسلة دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر ـ ٦ ـ جامعة اليرموك، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، د.ط، د.ت .

الأسلوبية ـ الرؤية والتطبيق، الدكتور يوسف أبو العدّوس، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، د.ت .

الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السراج (ت٣١٦هـ)، تحقيق : الدكتور عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، مكتبة الدراسات الأدبية ٦٣، د.ط ١٩٧١ .

الإعجاز الفني في القرآن الكريم، عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم ابن عبد الله تونس، د.ط، ١٩٨٠ .

إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق : أحمد صقر، دار المعارف، مصر،سلسلة ذخائر العرب ـ ١٢ ـ الطبعة الرابعة، د.ت .

إعجاز القرآن وأثره في تطوّر النقد الأدبي، الدكتور علي مهدي زيتون، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ .

الأكسير في علم التفسير، سليمان الصرصري، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٦ .

ألف ليلة وليلة، دراسة سيميائية لحكاية حمّال بغداد، الدكتور عبد الملك مرتاض ديوان المطبوعات الجامعية، د.ط، ١٩٩٣ .

الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ)، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا، د.ط، د.ت.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمّى بتفسير البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت٦٩١هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .

البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .

البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب (ت٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق : الدكتور حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ط، د.ت .

البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزَملكاني (ت٦٥١هـ)، تحقيق : الدكتورة خديجة الحديثي و الدكتور أحمد مطلوب، منشورات رئاسة ديوان الأوقاف، سلسلة إحياء التراث الإسلامي ـ ٩ ـ مطبعة العاني بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤ .

البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، الدكتور محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ .

البلاغة والأسلوبية، الدكتور محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، د.ط، ١٩٨٤.

البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع، على الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف، مصر، الطبعة الثامنة، ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

بناء الرواية ـ دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، الدكتورة سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

(١) ينظر: معاني النحو ٤/ ٥٦٦.
(٢) الانسان ١.
(٣) الفرقان ٢.
(٤) الإخلاص ٣ ـ ٤.
(٥) النمل ٨٦، وينظر: الإسراء ٩٩، الأنبياء ٣٠، الروم ٣٧، الزمر ٥٢، النبأ ٦، البلد ٨.
(٦) محمد ١٠، وينظر: يس ٣١، غافر ٢١، ٨٢، المرسلات ١٦.
(٧) معاني النحو ٤/ ٥٧٦.

(٨) مريم ٩٣.
(٩) يس ٥٣.
(١٠) آل عمران ٨٥.
(١١) آل عمران ٩٠ ـ ٩١، وينظر: محمد ٣٤.
(١٢) ينظر: آل عمران ١٠، المجادلة ١٧.
(١٣) ينظر: محمد ٣٢.

بنية النص الروائي من منظور النقد الأدبي، الدكتور حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣.

بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي الملقّب بـ سلطان عليشاه (ت١٣٢٧هـ)، مطبعة جامعة طهران، طهران الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ

البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، منشورات دار التوحيد للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق : أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، قم المقدّسة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

التجنيس وبلاغة الصورة، تقديم وتحرير فخري صالح، دار وَرْد الأردنية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق : الدكتور حفني محمد شرف، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، د.ط، ١٣٨٣هـ

التسهيل لعلوم التنزيل، القاسم ابن أحمد بن محمد بن جزي الغرناطي الكلبي (٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات ١٤٣، د.ط ١٩٧٨.

التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، مكتبة القرآن ـ١ـ د.ط، د.ت

التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، د.ط، ١٩٨٩م .

التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ دار المعارف، مصر، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية ـ ٢٥ ـ الطبعة الثانية، ١٩٦٦ .

تفسير جوامع الجامع، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، مؤسسة النشر والطبع، جامعة طهران، طهران، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ

تفسير الحبري، أبو عبد الله الكوفي الحسين بن الحكم بن مسلم الحبري (ت٢٨٦هـ)، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، حنفي أحمد، دار المعارف، مصر الطبعة الثالثة، د.ت .

تفسير القرآن العظيم، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، قدّم له الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

تفسير القرآن الكريم (تفسير صدر المتألهين)، محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت١٠٥٠هـ)، إيران، قم، الطبعة الثانية، ١٣٦٦هـ

تفسير القرآن الكريم، محي الدين بن عربي (ت٥٤٣هـ)، تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١.

التفسير النافع، السيد حسين الصدر، دار الكتب العلمية، بغداد، الطبعة الأولى، د.ت .

تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي (ت١١١٢هـ)، المطبعة العلمية قم، الطبعة الثانية، د.ت .

التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

تقريب القرآن إلى الأذهان، محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ

تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يوسف ـ دراسة تحليلية في التركيب والدلالة، الدكتور حسن عبد الهادي الدجيلي، سلسلة رسائل جامعية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد، عالم الكتب، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، تحقيق : محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، قدّم له الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥ .

جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، الدكتور محمد عبد المطلب، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

الجديد في تفسير القرآن، الشيخ محمد السبزواري النجفي (ت١٤١٠هـ) دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الثالثة عشرة، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .

الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين، عبد الله شبّر (ت١٢٤٢هـ) مكتبة الألفين، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ .

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠.

خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد، محمد محمد المبارك، مطبعة النهضة، مصر، د.ط،١٩٦٠.

دراسات لأسلوب القرآن، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد المالكي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،

د.ط، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

دروس في علم التجويد، أعدّ وجمع في الجامع الهاشمي، إشراف السيد حسين الصدر، راجعه وقدّم له : علاء الدين القيسي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق أحمد مصطفى المراغي، دار المكتبة العربية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م .

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تعليق وشرح : محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، د.ت .

الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى ـ دراسة لغوية، الدكتور حامد كاظم عباس، سلسلة رسائل جامعية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ .

الصافي في تفسير كلام الله، محسن الفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، دار المرتضى للنشر، مشهد، الطبعة الأولى، د.ت .

الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، الدكتور محمد فريد عبد الله، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ .

الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، الدكتورة بشرى موسى صالح المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

الصورة الفنية، الدكتور جابر عصفور، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٣.

الصورة الفنية في المثل القرآني، الدكتور محمد حسين علي الصغير، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات (٢٨٨)، د.ط، ١٩٨١.

الصورة الفنية معياراً نقدياً، الدكتور عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ط، ١٩٨٧.

الطبيعة في القرآن الكريم، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات (٢٣٦)، د.ط، ١٩٨٠ .

العقيدة الإسلامية، الشيخ جعفر السبحاني، الوكالة العالمية للتوزيع، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت .

علم أساليب البيان، الدكتور غازي يموت، دار الأصالة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

علم الدلالة دراسة وتطبيقاً، الدكتورة نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

علم اللغة بين التراث والمعاصرة، الدكتور عاطف مدكور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، ١٩٨٧.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، عالم الكتب، بيروت، د.ط، د.ت .

في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، الدكتور عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠)، الكويت، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

في نقد النثر وأساليبه، إعداد وترجمة : الدكتور عصام الخطيب و الدكتور توفيق عزيز عبد الله، دار الشؤون الثقافية العامة، سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد، د.ط، ١٩٨٦ .

في النقد والنقد الألسني، الدكتور إبراهيم خليل . منشورات أمانة عمان الكبرى . عمان، د.ط، ٢٠٠٢ .

القاموس الجديد، علي بن هادية وبلحسن البليش والجيلاني بن الحاج يحي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ط، ١٩٨٨.

القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي (ت٨١٧هـ)، د.ط، د.ت .

القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة، دار القلم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٢ .

قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، سلسلة المعرفة الأدبية، دار توبقال، الدار البيضاء، د.ط، ١٩٨١ .

كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق : الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، د.ط، ١٩٨٤ .

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت .

الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الحسن على الأمين أحمد، المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرّمة، د.ط، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م .

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)، تحقيق : الدكتور أحمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة الطبعة الثانية، د.ت .

مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، الدكتور محمد حسين علي الصغير، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي

(ت٥٤٨هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ط، ١٣٧٩هـ
مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص، دليلة مرسلي وأخريات، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
مدخل إلى علم لغة النص . تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفجانج دريسلر، الدكتورة إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ .
مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية، شارف مزاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ٢٠٠١.
مشاهد القيامة في القرآن الكريم، سيد قطب، دار المعارف، مصر، د.ط، ١٩٦١ .
معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد ـ بيت الحكمة، د.ط، د.ت .
معترك الأقران في إعجاز القرآن، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت .
معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، دار شرقيات، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.
معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ .
معجم مصطلحات نقد الرواية، اللطيف زيتوني، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.
معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) تحقيق : عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت .
مفاهيم القرآن، الشيخ جعفر السبحاني، الجزء الثامن، مؤسسة الامام الصادق،إيران، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ .
مفاهيم القرآن ـ دراسة الأمثال والأقسام في القرآن الكريم، الشيخ جعفر السبحاني، الجزء التاسع، مؤسسة الإمام الصادق، إيران، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ .
مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكّاكي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق : أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد الطبعة الأولى ١٩٨٢.
مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م.
مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر، مير سيد علي الحائري الطهراني (ت١٣٤٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران، د.ط، ١٣٧٨هـ
من أسرار التعبير القرآني ـ صفاء الكلمة، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، الرياض، د.ط، ١٩٨٣ .
مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ديفيد ديتسش، ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٦٧ .
منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، الدكتور مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف، مصر، مكتبة الدراسات الأدبية (٩)، الطبعة الثالثة، د.ت .
من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، د.ت .
من هدي القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، دار الهدى، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .
مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى السبزواري، مطبعة الآداب النجف الأشرف، د.ط، د.ت .
موسوعة السرد العربي، الدكتور عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ .
الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، دار الكتب الاسلامية طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ
النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، ٢٠٠٠.
نظرية الأدب، أوستن وارين ورينيه ويليك، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة الدكتور حسام الخطيب، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، د.ط، د.ت .
نظرية البنائية في النقد الأدبي، الدكتور صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، د.ط، ١٩٨٧.
نظرية التلقي ـ أصول وتطبيقات ـ الدكتورة بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ .
نظرية المعنى في الدراسات النحوية، الدكتور كريم حسين ناصح الخالدي دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
نقد الشعر، قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ)، تحقيق : كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الثالثة، د.ت .
وصف اللغة العربية دلالياً ـ في ضوء مفهوم الدلالة المركزية (دراسة حول المعنى وظلال المعنى)، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، د.ط ١٩٩٣م .

البحوث
الأسلوبية من خلال اللسانية، عزّة آغاملك، مجلة الفكر العربي المعاصر مركز الانماء القومي، بيروت، العدد ٣٨ لسنة ١٩٨٦م.
الجرس والإيقاع في تعبير القرآن، الدكتور كاصد ياسر الزيدي، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد التاسع، أيلول، ١٩٧٨.
السرد الآتي من التراث الأدبي، سمير اليوسف، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٨٧٠٨، الاثنين ٢٣ رجب ١٤٢٣هـ ـ ٣٠ سبتمنبر ٢٠٠٢م .
رومان جاكوبسن العالم اللساني، عبد الفتاح المصري، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ١٢٠، نيسان ١٩٨١ .
مقال : نادي المدينة المنورة الأدبي ينظم ملتقاه الشهري، صحيفة الجزيرة السعودية، العدد ١٢٦٣١، الأحد ١٢ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ .
الرسائل والأطاريح
أساليب المجاز في القرآن الكريم، أحمد حمد محسن الجبوري، أطروحة دكتوراه مقدّمة إلى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
الإنتاج الدلالي في الخطاب التفسيري للقصص القرآني، شذى خلف حسين، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
تحولات بنى الخطاب القرآني في مشاهد القيامة والقص ـ دراسة أسلوبية، بلقيس كولي الخفاجي، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد ٢٠٠٥ .
التوازي في القرآن الكريم، وداد مكاوي الشمري، أطروحة دكتوراه، مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٤ .
كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ـ دراسة أسلوبية، نسرين جبار الساعدي، رسالة ماجستير مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .
الوصف في الرواية العراقية دراسة نقدية في تقنية بناء الوصف، ١٩٣٧ ـ ١٩٩٠، عبد الأمير مطر فيلي الساعدي، رسالة ماجستير، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ـ جامعة بغداد، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .
الوصف في القرآن الكريم دراسة بلاغية، موسى سلوم الأمير، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٠م

المصادر الأجنبية

Adictionary of Literary Terms
By: Martin Gray ، Essex ؛ Longman Group Limited ، ١٩٨٤
How To Analyes fiction ،
By ؛ William Kenney ، New York ؛ simon and Schuster ، Inc . ١٩٦٦ .
مواقع الانترنيت العربية

Adab Arabi . Maktoobb log ٢٠٠٧ / ١٢ / ٥
WWW. Arabic Magazen . com ٢٠٠٧ / ١٢ / ٥
٢٠٠٨http .// www.Kitabat .com / ٥ / ٣
بحث : التكرار في القرآن الكريم درس بلاغي، سليم الجصّاني
http ؛ // member . ly cos . fr / abedjabri n ١٨ ٠٧ . Kannuni htm ٢٠٠٧ / ١١ /٢٧
بحث التوازي ولغة الشعر، محمد كنوني
مواقع الانترنيت الأجنبية
Gale . Cengag Learning
http ؛ // gle . Cengage . com / Free – resources / glossary no . htm .
htt : // en . Wikipedia ، org / Wiki Roman Jakobson ٢٠٠٨ / ٨ / ٩ .
http : WWW. Singnosemio . com
The functions of Language .
By : Louis Hebert . ٢٠٠٨ / ٨ / ٩ .

Ministry of Higher Education and Scientific Research
Baghdad University
College of Arts
Department of Arabic language
Graduate Studies

Quranic descriptive narrative levels – stylistic study

By
Talal Khalifa Salman
Supervision
A. Dr. Abdel-Razzaq Khalifa Mahmoud AL-Dulaimi
assumed ٢٠٠٩ Hijri ١٤٣٠